

الديوان

لؤلفيه

عباس محمود العقاد ابراهيم عبدالقادر المازني

الطبعة الرابعة





التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

قطاع النشر

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / (أحمد محمد شعراوي)

رئيس قطاع النشر والتوزيع

سعاد فريد

شعراوي

٢٠٨١ ٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة .

ت : ٣٥٥١٥٩٩

ت : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٨٠٠

مخمس : ٣٥٤٤٨١١ - ص ب ١٤ رقم بريدي ١١٥١٦

الدُّعَاةُ

(في الأدب والنقد)

لمؤلفيه

عباس محمود العقاد إبراهيم عبدالقادر المازني

الطبعة الرابعة

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض في احاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم ، وقد تجددت دواعى للكتابة فى اصوله وفنونه ، اخصها الامل فى تقدمه ، لالتفات الأذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس لاجتراء الادعاء والفضولين عليه ، وتسلى الأقلام المغوذة والمآرب المتهمة الى حظيره . وكتابتنا هذا مقصود به مجازاة ذلك الامل وتوفى تلك العال . وهو كتاب يتم فى عشرة اجزاء (١) . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب فى بضع السنوات الاخيرة وراوا بعض آثاره وتبنيات الأذهان الفتيحة المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابته ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو أن نكون فيه موفقين الى الافادة

(١) لم يظهر من الديوان فى النقد والادب الا جزاءان طبع اولهما فى يناير ولانبيها فى فبراير سنة ١٩٢١ واعيد طبعهما بعد شهرين

مسعدين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا - ان افلحنا فيه -
 انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط
 بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصرى
 عربى : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من
 تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح
 الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة .
 ومصرى لان دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لان
 لفته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة أدبية ظهرت في لغة العرب
 منذ وجدت ، اذ لم يكن ادبنا الموروث في اعم مظاهره الا عربيا
 بحثا يدبر بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة
 اصناما عبت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر
 من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلهذا
 اخترنا ان نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ
 الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها
 بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالسبار وكالميزان
 لاقاربها . فان اصبنا الهدف والا فلا اسف . وحسبنا بهذه
 المقدمة الوجيزة بيانا .

شوقي في الميزان (توطئة)

كما نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات في البلد ، لا استرخاما لشهرته ولا لمنعة في ادبه عن النقد ، فان ادب شوقي ووصفائه من اتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففا من شهرة يزحف اليها زحف الكسبيح ، ويضن عليها من قولة الحق من الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طي الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يفتنهم لم يبالوا أن يطبق الملا الأعلى والملا الأسفل على تبجيله والتنويه به فلا يعنيانا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم رفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغدا لولا أن الحرص المقيت أو الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الأخلاقية من كل انسان وذهب به مذهباً يعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى أعلى مقاوم السمعة الأدبية واهيئة الفكرية ، وكأنه يمتد اعتقاد اليقين أن الرفة كل الرفة والسمعة حق السمعة أن يشتري السنة السفهاء ويكم أفواههم ، فاذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول

والزبور في مناسبة وغير مناسبة وبحق أو غير حق فقد تبوا مقعد
المجد وتسبم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضماير ،
وسحقا للمقدرة والانصاف وبمدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل
والحياء ، فان المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن في الخزنة ، وهل
للناس عقول ؟

ومن كان في ريب من ذلك فليتحققه في تتابع المدح لشوقى ممن
لا يمدح الناس الا مانجورا . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك
الخرق المنتنة نعى بها بعض الصحف الاسبوعية . وعرف من لم
يعرف انها ما خلقت الا لثلب الاعراض والتسول بالمدح والدم وان
ليس للحشرات الادمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء
وذوى المآرب والحرايات . خبز مسعوم تستمرته تلك الجيف التى
تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الارض . في بلد
لو لم يكن فيه من هو شر منهم لما تواروا عن العيون .
هذه الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق اصحابها تكيل
المدح جزافا لشوقى في كل عدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى
يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو اثر يذكر ، بل تجهد نفسها في تحمل
الاسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جديدة والا
فالقصاصد القديمة المنسية في بطون الصحف ، وان لم يكن شعر
حديث ولا قديم فالكرم والاربية والفضل واللوزمية ، وان ضاقت
ابواب الدعاء والاطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال
عليه بالشتم ويعبر بالتقصير عن قدر شوقى والتخلف عن شأوه .
وهكذا حتى برح الخلفاء وانتهكت الدسيسة . والعجب ان يتكرر
هذا يوما بعد يوم ويبقى في غمار الناس من يحتاج الى ان يفهم كيف
يحتال شوقى وزممرته على شهرتهم ومن أى ربح نفخت هذه
الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة
ويعلمون انها آفة واى آفة : مدحها تهمه ، وذمها نعمة ، وتقيمها

وتقعدها لثمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، الا شوقى .
فانه يعتدها آلة شرف وأحدثة حسنة فهو يغمس نفسه في
تقريبها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب عجاجات من
أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية في مثل ثروته بصر به
يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الأوباش في خلوة من خلواته لراها
نقيصة يخزى لها ويود أن تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء
بعمرة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية
وشمم افذاذ العبقريه . فاما ان تكرم البطالة كما تكرم جلائل
الأعمال ، وأن يدعى الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون
لحمد الاحسان والمروءة وأن يتنادى الى الاحتفاء بناهشى الاعراض
كما يحتفى بمهذبى الأرواح وهداة العقول ، وأن يؤيد نفاية المجتمع
وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التى
لا يبدر قرارها ... ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟
شعراؤها - الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال
الاسمى لا يرضون بما دون غاية الفايات مطمحا لعجائبهم
وقبله لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعدرفق اسجانيين
بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزعا
... الا انه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى
بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخر
الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقته حتى
يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده اجرة
سوقه واختلاسه . واقسم لو فعلها رجل فى أوربا لما قدر أن يمكث
معه اسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مقبته
أدبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من شيء ،
ولا يصد المرء أن يخلع فيه عاريا الا اتقاء طوارئ الجو وعوارض
الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءا تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى
 هم يستنكف في سبيل بغيته واى باب لا يطرقه تقربا الى طلبته .
 والحقيقة ان تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد به
 كل مورد واذله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال
 منفصحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء القوامض ولكننا نذكر
 هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم .
 نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد في مركز
 أمكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان اشبه بملحق أدبى في بلاط أمير
 مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء
 والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل
 عليه بالتقريظ والتهيل وتتحاشى ان توسع صفحاتها لنقده كما
 توسعها لنقده غيره . وانت اذا قلبت الصحف القديمة رأيت فيها
 مئات المقالات في نقد الأدباء المشهورين كتابا كانوا أو شعراء ولا ترى
 اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثنى مقالتين أو ثلاثا
 بدأ بها المولى شوقى في صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ،
 وهذا ادعى الى الريبة ، وكان في أمانة شوقى وموظفين آخرين
 بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والأدباء فكان شوقى
 يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالأدب
 ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه في الصحف ويلغظوا في
 المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحدا
 واحدا وأكثرهم أحياء يرزقون . أضف الى هؤلاء من يمدحونه
 لمشاركتهم اياه في العادات الخصوصية والمناذات الليلية ، وهم غير
 قليل ، ومن اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف
 والألقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك :
 أولهم محمود سامى باشا البارودى (لانه باشا عتيق) وثانيهم
 اسماعيل صبرى باشا (لانه أحدث عهدا بالباشوية والوزارة)
 وثالثهم أحمد شوقى بك (لانه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك

أبراهيم (لانه أحرز الرتبة أخيرا) ولى ذلك خليل أنندى مطران
(لانه حامل نيشان) فطائفة الأنندية والمشائخ وهلم جرا كانما
يرتبونهم فى ديوان التشرىفات لا فى ديوان الآداب !!! فبذلك وما
شاكله اعتاد الناس أن يسمعوا اسم شوقى مشغوعا بأفخم الألقاب
شارقا فى صيغ الأطناب والاعجاب . وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور
اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه إلا أن تكرر تلك الصيغ فى كل
مرة يذكر فيها اسمه . ففى كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب
وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شعرى
ما ضرورة هذا التكرار كله ان كان مفهوما بذاته ؟ ؟ ولما رسخت
هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة وأشباه العامة ومن يجاملون
السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها - ولم لا يصدقونها ويرددونها
وأكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم أئمة يعرفه
بالسمع ويلقنه بالاشاعة ؟ ؟ فان كان فى الأمر موضع للعجب فهو
أن نسمع ثناء متكررا ولا نسمع نقدا - مع أن الإغراق فى الثناء
أحجى أن يغوى بالمنافسة ويكثر من النقد . ومتى علمت علة
السكوت فقد زال موضع العجب .

واظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المقلب بعرض الصيت
فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فأصبح لا يقنعه أن يعلل بالدهان ،
ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على
الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى
باسم ، ولا تقرن الى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة
الاجادة معروفة !! وما أطول عذابه ان لج به هذا الوسواس !! وان
الحنّة تستلذ الرحمة ولكن أرحم الناس خليك ان يضحك ممن
يخال انه يعقم بطن الطبيعة ويسد الأذان ويضيق رحب الفضاء
بالاجرة .

ولو شئنا لانتحلنا من كلف شوقى بتواتر المدح دليلا على جهله
بأطوار النفوس فان الأذان أشد ما تكون استعدادا لقبول الدم اذا

شبت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النعمة . واذا تعود الناس ان يسموا ضربا واحدا من الكلام عن اسان تاقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة واكبر ذنبه عندها انها افترطت في محاباته ، فهل يدري شوقى انه يؤجر اذنا به على النيل منه حين يبذل الاجر على المبالغة في مدحه ؟؟ انه لا يدري ولا يرى المريض أن يدري بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ، فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن اسلحتهم ونضطرم الى العدول عن اساليبهم المستهجنة ياسا من صلاحها في هذه الايام . اذ يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس اندارهم الا ريشما تنكشف اسرارهم . وتقول لشوقى ان سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكرهه أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا ابرد عليها وغرة قیظها . وانه ليلد لنا ان تكون نحن حربه وبلاءه وان نستطيع الادالة للحق من الباطل في غرض من الأغراض فانها لذة نادرة في هذا العالم .

وانه على قدر استفادة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان ابلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا ، وأضر ما يكون اذا كان متخذا نموذجا للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الأمر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن انها قصيدة رديئة فان اللوق والتميز اذا اختلا لم يكن اختلاهما في الادب وحده . وانت اذا استطعت ان تهدي الطبقة المتأدبة من امة الى القياس الصحيح في تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح في كل شيء ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الامم تختلف ما تختلف في

الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها أجمعه الى فرق واحد: هو الفرق فى الحالة النفسية أو بالحرى الفرق فى الشعور وفى صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحدود أو القاصر على القشور ولكنه من أعم أنواع الإصلاح وأعمقها . وسنتناول شعر شوقى قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الأثر جليا فى تحول الآراء وسلامة القياس ، وسيرى للقراء أننا نغلف له البلاغ ونصحه صخا شديدا . وكذلك ينبغى أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالعقول والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الأفواه وتسخير الماجورين . على أننا لا نحتاج أن نقول أن ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداواة على القارئ ليقتنع بما نقول فأننا لا نسال أحدا اقتناعه . ومن كان يحتكم براهه الى غير الحجة إقاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا أن نوجه لمثله كلاما . وأنا لبادئون : -

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال أن قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده . فاتها في مستوى أحسن شعره الأول والآخر ، وهي صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهدف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجراً في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزاياء ومحاسن التي لم يكن للشعر مزاياء ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضي عهد ركافة في الأسلوب وتعثر في الصياغة تنبؤ به الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق إلى جملة مستوية النسق أو بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعذبه الأنفواء لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمات وهرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الأساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة - فاذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القارئ « كالماء الجاري » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . وإذا اشتهر شاعر بالإجادة فليس للإجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي التي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي أحسن قصائده .

مضى الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة وأخرجت المطابع مئات الكتب التي

صاغها أقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الأسفار الأفرنجية أو اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفنى أو الأدبى . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارئ أن يبحث عن المعنى بل لا يكفى القارئ المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله . فمزيه شوقى عند هذا الجيل الناشئ من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لنبعث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقي اليهم الفصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة ذلك الصدى ، وطفق أذكاء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة في ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغترابا بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا أصاب شوقى » ؟؟ ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيرا من هذا الشعر ، وقد يعززون الاختلاف الى كلال التسيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى ، وحديثه الذى يفضبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون - لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الأمس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب في ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقى محله الأول مع انحذار شعره في نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعادة التى لم تتغير منذ قدروه للمرة الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جسد شوقى في مكانه لانه جعل اطراء الناس غاية فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس أن القارئ يرتقى في الاختيار أضعاف ما يرتقى الشاعر في الأداء والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الأربعين فان أخصب أيام

الشعر أيام الشباب . وإذا ارتقى فانما يكون ذلك باحثاث الطبع
وإدمان الاطلاع والتزويد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من
الناس داعيا الى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة
لا يتعدى كتب القصص وال نوادر .

وقد أحس شوقى بالتغير من حوله فأده أن يستدركه وأعيته
الزيادة في سن التقهر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزداد ترويع
السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته
في فريد وقرىء له في نقدها ما لا يحب بهت على ما سمعت وقال :
تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت . . .

فلننظر إذن فلسفة الموت التي استنبطتها حكمة شوقى :

تعود إليها القاريء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم
تسمعه من أقوال المكدين والشحاذين الا كل ما هو أخس من بضاعتهم
وأبحس من فلسفتهم - كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان
والعكاكيز اذ ينادون في الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ،
اللى عند الله باقى ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا
التقاء » الخ . . . الخ .

تلك أقوال الشحاذين وهذه أقوال (أمير) الشعراء .

كل حى على النيسة غاد	تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الأولون قرنا فقرنا	لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم	غير باقى مآثر وإبدي

الخ . . . الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار
يوزع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه أخط من ذلك معدنا وأقل
طائلا وأفضل مضمونا . والجسد منه لا يعدو أن يكون من حقائق
التمرينات الابتدائية « كالزبيب من العنب و $2 + 2 = 4$ » وهلم
جرا . وأكثره آتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه وإثباته

سواء أو بيت حذفه أفضل ، مثل اخباره بأن جر النعش في مركبة
أو حملة على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زيتت جلالات منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذي ما أحسب احدا يمر بقبر
فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيئة في نفسه هزواً وعبثاً . وذلك
حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو علم الحق أو منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الأخرية :
« انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق
الآخرة لئلا يضل أحدهم النهج أو يصطدم بصخرة في دروب
الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم ايقاظاً ونياماً
كانما الموت يلتبس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها أجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تبئسه من رجعة الموت الى أهله وتخطئته الذين يزعمون
غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجمله غيره كأنها مسألة
خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها احزاب الفلسفة ولم يفرغ
الناس يوماً من بحثها وتقليب وجوها والتنقيب عن أسانيدها
وشواهداها حتى جاء شوقي ففض الخلاف ببتيته هذين .

سر مع العمر حيث شئت تؤين

وافقد العمر لا تؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذي زعموه

في قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان أهل الميت اذا مات في برلين أو لندن أو الهند
لا يزالون يترجون يوم أوبته ، ويمعدون أيام غربته ، وكان العلماء في

كل قطر وبلد يتساءلون امن مات غريبنا عن دياره أيوب الى اهله
يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتعا بالعافية أو لا أيوب ؟؟ فكان
فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى أن جاء شوقي
فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا أيوب » فانحسم الاشكال وقطعت
جهيزة كل خطيب :

قال ناقد اديب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه
قائل المثل العامي « اعطني عمرا وارمني في البحر » وانه كان أسوأ
منه تعبيرا وأقل ظرفا اذ يخاطب القارئ بقوله « أفقد العمر » وذلك
العامي يتلطف أن يجبه الناس بهذا الخطاب ونقول : ان توارد
الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فان من
يتجشم لأجل الإنسانية أن يفوض على هذه المسائل العويصة ويسهر
الليالي في فض مفلقاتها وحل مشكلاتها لتحقيق بأن يتجاوز له الناس
من حسن المخاطبة ولا يكلفوه أن يابه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد الى ما كنا فيه من ثقل أبيات شوقي التي لم يرد في
فلسفة الشاذين مثلها - فمن هذه الأبيات نأ عجيب فحواه أن في
العالمين نعشا واحدا تنقلهم أعواده من عهد عاد .

تستريح الملى يوما وهذى تنقل العالمين من عهد عاد

فان لم يكن يعنى هذا ويزعّم ان الأمم لا تملك منذ وجدت غير
نعش واحد تنقل عليه موتاه فسبحان من يعلم مراده . والإ فان
كان يعنى ان هذه الخشبة التي ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى
وتجدد فأى شيء لا يمكن أن يقال فيه ذلك ؟؟ اية مطيعة لا تنقل
العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال أى انسان لا يقول
اليوم أو بعد مائة جيل انه ركب مركبة فرعون ونام على سرير
قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا وطوت من ملاعب وجياد
شاعر عصرى ولا شك !! الا تراه يدين بكروية الأرض ؟؟ ولكننا

نخشى أن لا يكون شوقي قد ذكر الكرة إلا ليذكر بعدها الصولجان والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها . وانت اذا نقلت هذا البيت الى آية لغة لم يكن معناه إلا هكذا : « هذه الفبراء أسقطت من أيدي الملوك قضا كثيرة ودثرت ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وأبادت خيلا لا تحصى » - فما أشبه الحكماء بالمفرورين ان كانت ثمرته كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة .

ويقول :

تطلع الشمس حيث تطلع صباحا
وتنحى لمنجمل حصا
تلك حمراء في السماء وهذا
اعوج النصل من مراس الجلا

اليوم لا نخشى بفتة الأجل في كل حين !! فالشمس لا تخرج بدم قتلاها الا حيث تطلع صباحا (أى حين تطلع حمراء وفي السماء . أما أن طلعت في الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا الا في أيام الالهة أو المحاق وفيما عدا هذه الاوقات لا قتل ولا حصا فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا تصدقوه فان موته باطل ...

الا أن شعرا يسف الى هذا الحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب الأزل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تهادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كان الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكان الناس فقدوا قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو اعوج

معقوف فطلبوا له شيها ، وهو اغنى المنظورات عن الوصف الحسى ،
لانه لن يهرب يوما فنقتفى اثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه
وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يشه في نفوسنا من حنين أو
وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف
النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم
هو كالخلخال ثم راوا ان لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق
زنجة الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشيخوا
بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأوهام . واقتن قوم فقالوا هو
كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر الى حسن هلال بدا
يهتك من انواره الخندسا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر اللجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم
نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟؟ هل
فى هلر . وجاء شوقى فقال انه منجل يحصد الأعمار فإخطأ حتى
للتشبيه الحسى لان الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل
فحسب ، وأما فى سائر الايام . فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى
حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والفبار الذى على صفحتها دوران الرحى على الأجساد
وذلك من قول أبى العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورعى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا بأس بهذا التمثيل ، واقتضى
للطن رعى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده
الاستطراد ، فمز على شوقى الا ان يكون لهذا الطحين غبار وان

يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحي . عند
هذا يركد العقل ويجم الكلام .
ولم افهم البيتين الآتين بعد قوله : « تلك حمراء في السماء
.. الخ »

**ليت شعري تعمدنا واصرا
أم اعانا جنباية الميلاد ؟
كذب الأزهران ما الأبرار
قدر رائج بما شاء غدا**

يعنى الشمس والقمر . فما التعمد والأصرار وما اعانة جنباية
الميلاد وما الفرق بينهما ؟؟ أريد أن يطبق على الأزهرين المادة
القانونية : مادة القتل من تعمد وسبق أصرار ؟؟ وفيه كذبا وكيف
يكون جريان الشمس والقمر في حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما
للقدر الرائج القادى ؟؟ وهل التعمد والأصرار واعانة الميلاد إلا رواج
القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم في ذلك على
شاعر الانس والجن فلعل هذه من آياته التى صنعها لآخواننا الجن
واختصهم بها دوننا .

ويقول في نعش فريد أو حقيبة الموت كما سماه :

**لو تركتم لها الزمام لجاءت
وحدها بالشهيد دار الرشاد**

أما دار الرشاد فهى مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقى
ولا كما أراد التاريخ والأثر . وإما معنى البيت فيقول شوقى ان
نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسمى وحده الى مصر لا
فله ما أقدر رائى الشموس على احالة الجبل مضحكا والتقدس
ؤراية : نعش يسعى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن
والديار ، يمتدل وينعطف ، ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند
قبره ، جادا لا يلوى على شئ قبل بلوغه ، والناس متنحنون عن

طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته .. افمن هذه الصور ينتزع الشعر
مادة الرثاء والاحلال ؟؟ الا ساء ما اصاب ذكرى الرجل من اجلال
شوقى . اراد ان يقول كما قال البحتري :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما

فى وسعه لسعى اليك المنسبر

فكبا كبرة حاطمة .

ولقد طمح شوقى الى معارضة المعرى فى قصيدة من غرر شعره
لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا فى شعر العرب على
خير منها فى موضوعها . والمعرى رجل تنعم هذه الحياة محرابا
واجتواها غابا وصدف عنها سرايا - لابس منها خفايا اسرارها ،
واشتف مرارة مقدارها ، وتبع غواير آثارها ، وحواضر أطوارها ،
فاذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله
وتلك سبيله . وأين شوقى من هذا المقام ؟؟ انه رجل أرفع ما اتفق
له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره وأعرق ما هبط الى نفسه
من آلامها اعراضة أمير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر فى
فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا تكبر قصيدة المعرى تعصبا
للقديم واشارا للعرب على العجم تلقى اليه ها هنا درسا فى الشعر
قد ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر
الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها . وأن ليست مزية
الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه وانما مزيته أن يقول
ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من
القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع وانما همهم أن
يتعاطفوا ويودع احسهم وأطعمهم فى نفس اخوانه زبدة ما رآه
وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . واذا كان كذلك من التشبيه
أن تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما

وَدَّتْ عَلَى أَنْ ذَكَرْتُ أَرْبَعَةً أَوْ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ حَمْرَاءَ بَدَلِ شَيْءٍ وَاحِدٍ ،
 وَلَكِنْ التَّشْبِيهِ أَنْ تَطْبَعُ فِي وَجْدَانٍ سَامِعَكَ وَفَكَرَهُ صُورَةً وَاضِحَةً مِمَّا
 أَنْطَبَعَ فِي ذَاتِ نَفْسِكَ . وَمَا ابْتَدَعَ التَّشْبِيهِ لِرَسْمِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ
 فَإِنَّ النَّاسَ جَمِيعًا يَرَوْنَ الْأَشْكَالَ وَالْأَلْوَانِ مُحَسَّسَةً بِذَاتِهَا كَمَا
 تَرَاهَا وَإِنَّمَا ابْتَدَعَ لِنَقْلِ الشُّعُورِ بِهَذِهِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ مِنْ نَفْسٍ إِلَى
 نَفْسٍ . وَبِقُوَّةِ الشُّعُورِ وَتَيَقُّظِهِ وَعَمَقِهِ وَاتِّسَاعِ مَدَاهِ وَتَفَاضُلِهِ إِلَى
 صَمِيمِ الْأَشْيَاءِ يَمْتَازُ الشَّاعِرُ عَلَى سِوَاهِ ، وَلِهَذَا لَا لَفْزُهُ كَانَ كَلَامُهُ
 مَطْرَبًا مُؤَثِّرًا وَكَانَتْ النُّفُوسُ تَوَاقِعُ إِلَى سَمَاعِهِ وَاسْتِعَابِهِ لِأَنَّهُ يَزِيدُ
 الْحَيَاةَ حَيَاةً كَمَا تَزِيدُ الْمَرَاةَ النُّورَ نُورًا . فَالْمَرَاةُ تَعَكْسُ عَلَى الْبَصَرِ
 مَا يَضِيءُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّيْءِ فَتُضَاعَفُ سَطْوَعُهُ وَالشَّعْرُ يَعْكُسُ عَلَى
 الْوَجْدَانِ مَا يَصِفُهُ فَيَزِيدُ الْمَوْصُوفَ وَجُودًا إِنْ صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ ،
 وَيَزِيدُ الْوَجْدَانِ أَحْسَاسًا بِوُجُودِهِ . وَصِفَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الْمُحَكِّمَ الَّذِي
 لَا يَخْطِئُ فِي نَقْدِ الشَّعْرِ هُوَ أَرْجَاعُهُ إِلَى مَصْدَرِهِ : فَإِنْ كَانَ لَا يَرْجِعُ
 إِلَى مَصْدَرٍ أَعَمَّقَ مِنَ الْحَوَاسِ فَذَلِكَ شَعْرُ الْقَشُورِ وَالطَّلَاءِ ، وَإِنْ
 كُنْتَ تَلْمَحُ وَرَاءَ الْحَوَاسِ شُعُورًا حَيًّا وَوَجْدَانًا تَعُودُ إِلَيْهِ الْمُحَسَّسَاتِ
 كَمَا تَعُودُ الْأَغْذِيَّةُ إِلَى الدَّمِ وَنَفْثَاتِ الزَّهْرِ إِلَى عُنْصُرِ الْعَطَرِ فَذَلِكَ
 شَعْرُ الطَّبَعِ الْقَوِيَّ وَالْحَقِيقَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ . وَهَنَّاكَ مَا هُوَ أَحَقُّ مِنْ
 شَعْرِ الْقَشُورِ وَالطَّلَاءِ وَهُوَ شَعْرُ الْحَوَاسِ الضَّالَّةِ وَالْمَدَارِكِ الزَّائِفَةِ
 وَمَا أَخَالَ غَيْرُهُ كَلَامًا لِشَرَفِ مِنْهُ بِكُمْ الْحَيَوَانَ الْأَعْجَمِ .

فَإِنْ تَبَيَّنَ لَكَ مَا نَقُولُ فَانْظُرْ مَكَانَ قَصِيدَتِكَ مِنْ قَصِيدَةِ الْمَعْرَى
 الَّتِي اجْتَرَأْتَ عَلَى مَعَارَضَتِهَا .

نَظَرَ الْمَعْرَى إِلَى سِرِّ الْمَوْتِ فَلَمْ يَرَهُ فِي مَظْهَرِهِ الضَّيِّقِ الْقَرِيبِ ،
 حَادِثًا مُتَكَرِّرًا تَخْتِمُ بِهِ حَيَاةَ كُلِّ فَرْدٍ . بَلْ رَأَاهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ الْخَالِدَةِ
 الْعَمِيمَةِ . رَأَاهُ كَمَا بَدَأَ مِنْذُ الْقَدَمِ لِبَدَائِهِ الْحُكَمَاءَ وَأَصْحَابِ الْأَدْيَانِ ،
 وَكَمَا تَبَطَّنَهُ مِنْ قَبْلِ بُوْذَا وَكُنْفُشْيُوسَ وَمَانِي : حَرْبًا سَرْمَدِيَّةً قَائِمَةً
 بَيْنَ قَوَتَيْنِ خَفِيَّتَيْنِ مِيدَانَهُمَا كُلُّ نَفْسٍ حَيَّةٍ وَكُلُّ ذَرَّةٍ فِي طَبَاقِ
 الْأَرْضَيْنِ وَأَجْوَازِ السَّمَاوَاتِ - هَاتَانِ الْقَوَتَانِ هُمَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ أَوْ

هما النور والظلام أو هما الحقّ والباطل أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعاون لا تنسى تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدها اليوم وغدا ، ولتشهدها الى ختام الزمان أن كان للزمان ختام .

نظر المعري الى العالم الأرضي فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نجبا مقضيا ما أحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما في كل كيان قائم ، متقادما في كل ركن متقادماً :

كل بيت للهدم ما تبتنى الود

قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم أن القوتين اللتين هذا أثر نضالهما في الأرض فاعلطان هذا الفعل لا محالة في أشرف كواكب السماء وأسمائها ، وأضوأ عوالم النور واذكأها .

زحل أشرف الكواكب دارا

من لقاء الردى على ميعاد

ولنار المریخ من حدثان الدهر

مطف وإن علت في انقباد

والثريا رهينة باهتراق الشمل

حتى تصمد في الأفراد

لا بل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين منلاحقين في كل حال .

واللبيب البلييب من ليس

يفتر بكون مصيره للفساد

(١) الكون هنا وفي البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم

وكانت العبرة التى استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف
على مشهد من ذلك النضال التمرى ، فوق افراح الانسان واحزانه ،
ولو نطق الابد لما تكلم بغير قوله :

غير مجد فى ملتى واعتقادى

نوح باله ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعى اذا قيس

بصوت البشير فى كل نداد

واذا ذكر متاعب الحياة فكأنما يذكرها ليصرفها عنه بنظره
القائى المستخف فيقول :

تعب كلها الحياة فما اعجب

الا من رغب فى ازدياد

ان حزنا فى ساعة الموت اضعاف

سرور فى ساعة الميلاد

اسف غير نافع واجتهاد

لا يؤدى الى غناء واجتهاد

كذلك كان احساس المعرى بسر الموت ، وهو اوسع احساس
قدر لبشرى ان يحسه من ذلك السر الرهيب .

اما انت فقد نظرت فماذا رايت ؟؟ لعلك ادرى بما تنظر وترى
ولكننا نقول لك ما لست تدري . انك لم تر شيئا يحتاج الناظر فى
رؤيته الى غير الحواس - انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد »
حيث يسوى المعرى بين وكر الوراق ومعامل العظماء وبين منازل
الارض ودارات السماء . اردت ان تعمم كما عمم ففاتك مغزى
تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى قشوره ، اذ ما علمنا بين
الحضر والبدو من فرق فى التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما
فى حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادى لان
احدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار او انقطاع

الآخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادي لمثل هذا السبب .
وأما قولك يموت من في الحاضرة والبادية فكذلك الناس اسما اسما .
وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى انه لو صح ان يقال هذا فأي
فضل فيه لغير الحواس وأي دليل فيه على اللب الحكيم والطبع
القوم ؟؟ وتقول في القبر انه منار المعاد .

وزمّام الركاب من كل فج

ومحط الرحال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق في هذا الحكم ؟؟ وتقول :

وعلى نائم وسهران منها

قدر لا ينم بالمرصاد

وهذا كذلك بل أضعف أما قولك .

لبد ساقه الردى وظن

النسر من سهمه على ميعاد

فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .

وإذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمدنا الى مقارنة الأبيات
المتشابهة في القصيدتين الفيناك تخطيء في كل بيت تسرقه من المعرى
أو تاتى بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .
المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحدنا مرارا

صاحك من تزاحم الاضداد

ودفين على بقايا دفين

في طويل الأزمان والأباد

وليس أجل ولا اصدق من هذا الشعر . وان تعبيره عن تعاقب
الدفين بعد الدفين في الموضع الواحد بتزاحم الاضداد وقوله ان

اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان في وصف تهكم الموت بالأحياء وعبت التراحيم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكي هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى التراب احسن عدلا
وقياما على حقوق العباد
نزل الاقرباء فيه على
الضعفى وحل الملوك بالزهاد
صفحات نقيصة كقلوب
الرسل مفسولة من الاحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم احسن صيانة لانه يبيدهم جميعا !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذى لقيه اضعف العباد من اقواهم وأظلمهم اشد من هذا الانصاف والصيانة ؟؟ ويخيل اليك أنك أبدعت حين قلت ان الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى ان الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟؟ فان كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقتله لغير غرض - اما المعرى فقد احاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق او بلاغة الاسلوب حين قال :

وعزير على خطى الليالى
وم اقدامكم برم الهوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لا لعب فيها .
وعندك ان طهارة القلب هى موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيًا مفسولا كقلوب الرسل . افليس من موت القلب ان لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟؟
يقول المعرى :

خفف الوطء ما اظن اديم
الأرض الا من هذه الأجساد

وانت تقول :

والغبير الذي على صفحتها
دوران الرحي على الأجساد

المعري يسأل :

ابكت تلكم الحمامة ام غنت
على فرع غصنها المياد

وانت تأتي ان لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكي فتقول :

ضاق عن تكلها البكي فتفتت
رب تكل سمعته من شاد

ثم يروك وانت تبارى المعري بمباراة المضحكين ان تزعم
لناجيتك ولنفسك انك نظمت في فلسفة الموت وبددت شيخ المرة في
آية من آياته !!

على انك قد تعدر بعض العذر في قصورك من هذه الناحية لانك
مجبر فيه لا مخير . اما الامر الذي لا نعلم لك منه علرا فان ترى
رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضا ، وأن
لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولو كان
ذاك لضيق في مضطرب القول او لنقص في بواعث الاسى على الرجل
لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم ان مصر الحديث لم تنجب من
دعاتها رجلا لقي في حياته وموته مما يستثير دفاثن الحزن ويطيل
مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك في قضاء حقه وتوفية
قدره لا يكون الا لعجز او كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلا حنة
لا تزال تغلى في نفسك على الرجل بعد موته . وانت بأسبابها اعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع في الهجاء ، او
ينوى الدم فيأبى بما ليس يفهم منه غير الثناء . واشد من ذلك
ايضالا في سقم الذوق وتغلغلا في رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث
أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو في موقف التأبين والرثاء
والعبرة بالفناء .

ولست ادري اى ما جن من نظامينا قال هذا البيت في رثاء
احدى العيان :

رحمة العود والكمجاء عليها وصلاة الزمار والقانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمج منه الهذر في مثل هذا
الموقف ، او عيب عليه سوء الظن بغن الفناء واقدار ذويه - اسلم
ذوقا في بيته هذا من شوقى في رثائه لعثمان غالب . لانه تعمد
الهزل فقلاله وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل
هذا الهراء .

ضجت لمصرع غالب	في الارض (ملكة النبات)
امست (بتيجان) علي	ه من الحداد منكسات
قامت علي (ساق) لفي	يته واقعدت الجهات !!!
في ماتم تلقى الطيب	عة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الارض) من	جزع موائد كاسفات

والزهر في أكمامه يكي بدمع الفساديات
جست آقاي السربي والعهد فيها مومضات !!
وشقائق النعمان آ بت بالخدود مخمشات

بل تما لا مرأ فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء
وبر بوعده لنفسه واغبط بما دب عليه من المعاني الدقيقة والنكات
الأنيقة ... لانه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير
موضعها ، ولعمري كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر او الثمر
كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . يذكرهما في غضبه ورضاه ،
وفي لهوه وبلواه ، وفي فرحه وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته
وكرهه - ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل
المدينة الآهلة ، وحين يروى عن النعمة السافرة او يتحدث بالمصيبة
القائلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلهما
بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقل انها صفراء
كالاقحوانة ، او المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تنفلق
الرمانة ، او المتدلى من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، او
قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقي لم
يوف هذا الغرض فحسب بل أرانا ان الأزهار لا تجرى على سنن
المجاملة في النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هي غرس
يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا
بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تذبل دمة
أسفا لفرقه وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والدوق المليح
فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا
لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمران
التحاس احتقاناً ، ولبن القصدير ذواباناً ، الى آخر ما هنالك من
ألوان العذاب التي تلم بالمعادن الصلاب - ولو كانت النكبة في عالم
« جيولوجي » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقول (مثلا) ان
الطبقة الرملية في ناحية كذا تجثو التراب على رأسها فرعا ورعبا ،

وإن الطبقة الجبرية في موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وإن هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بها الكمد ونهايك ما كان يقوله لو نفذ القضاء في شاعر جليل فانه أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والأقواء والخبن والسنداد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قبلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر إلى يوم يبعثه من القبر الذي الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ، وإي تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر التمدابة في سهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب وتقيق الضفادح لو كان العالم المقفود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام؟؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه فاننا ان احتملنا حداد الألوان والاشكال فلن نطبق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لا بد من التضحية ، لا بد من فقدان والخسارة في هذه الدنيا الغانية !! وليس من السهل أن يقول الإنسان أن الأشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التي ما برحت قاعدة في مكانها منذ الأزل ، ولا من الهين أن يحشر الطبيعة « لا أكثر » في ماتم تكون فيه إحدى النائحات « فقط » ولا من اللعب أن يصل في كل ساعة إلى ابكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار - ولا سيما النفسية منها - كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكي يقول الرجل الفنان منا هذا القول وبهبط إلى قرار هذه المعاني العميقة ، لا غنى له عن التضحية بالدوق السليم والوصف الصادق والتخيل الصحيح والشعر الجدي والشعور القوي ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنه فما تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مبالاة ... تقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا فشا ضعيف الملكة مشنوء السليقة ... وتقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد أن يقول وتفنن وروى . أجل !! انه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذي يرثه أولئك السدح اللهاء ، الذين يحسبون ان الإخصائيين اذا ماتوا فيجمعوا أحدا غير المواد التي

تفرغوا لدرسها وتفرغوا على البحث فيها ، والذين اذا اودى أحد أولئك الاختصاصيين اسفوا ووصفوا اسفهم هم عليه (مباشرة) ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب المسحاب تارة اخرى ، أو يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها وامواتها واحيائها ويجعلوا النفس الانسانية أو نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد في الإبانة من براعة شوقي وافتنانه ، والإشادة بخلايقه وبيانه . لولا أننا آثرنا أن لا يفوتنا سؤاله عن أنواع من النبات لم يسمها في تلك المناحة التي أقامها - ماذا كان من شأن القطن باصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والتفأ في ذلك الماتم المقيم الذي كانت الطبيعة فيه إحدى النائحات « فقط » ؟؟ أنه سكت عن هذه الأنواع وغيرها فهل ذاك لأنها لم تكن من اتباع النباتي الكبير أم لأن من خواص تلك الأنواع التي يعلمها الشعراء ويجهلها النباتيون أنها مضیعة للعهد ناكرة للجميل ؟؟ أم لأنها لا تنتمي الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالمرجان بحسبه قوم نباتا وبحسبه آخرون جامدا وهو من عالم الحيوان ؟؟ أم هو الصديق في الخير والأمانة في التبليغ أوجبا اليه ما قال فلذكر فريقتا وسكت عن فريق : رأى الرجل الافأحي باهتة ذابلة على غير عهدا وابصر شقائق النعمان تخمش خلودها فابرا ذمته وادى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئا فربا بشعره عن شهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبايع وقسوة القلوب ؟؟ تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا أهميتها وخطورتها ولولا أننا تعلمنا منذ الآن أن نرتب أعين كل جامد ونابت وحى ، حاشا الإنسان ، تعرفنا لجلال الأنباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ويظهر بها التجابون ، ولو أننا عرفنا ماذا ينبغي أن تحلوا الأمة من موت الاختصاصيين من رجالها ، وأنها مسئولة أن تضن بأرواحهم مخافة أن تمتنع نرجسة أو تسود فحمة ...

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء العالم الطبيب
فقال مفصلا مقسما :

اما مصاب الطب فيه
فسئل به مالا الاساة
اودى الحمام بشيخهم
وما بهم في المعضلات
ملقى الفروس المسفرت
عن الفروس الثمرات

والقارئ يرى انه لم ينح نحوه الاول . وما كان ذلك بلا ريب
استهجانا له او توبة عنه وانما خاتته القريحة وخذ له الاختراع .
والا فماذا كان يمنعه ان يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة - مثل هذه
الآيات .

طريت لمصرع غائب في الأرض رسل الحميات
قدمات (غائب) جندها فتمردت بعد (المات)
امست جراثيم الملاريا من سرور (ظاهرات)
وتفرق التيفوس والـ تيفود في كل الجهات
وتألب المكروب والـ بكتريا بعد الشتات
وبكت قوارير الصيادل بالدموع السائلات

فهذه آيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد
للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فلين لنا فيم اخطانا المحاكاة
وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكاننا بصاحب « الامتياز »
الأعلى يعرض بنانه ندما على قواف هذه التتمة الصالحة فانه ليس
أفص للنفس من فرصة يلوح لها تأيها بعد معالجتها واليأس منها .
كذلك يؤبتون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتحكمون ؟؟ وأما والله
لو توخى هذا الذى شعر لتأبين عثمان غالب ان يمازح الرجل بكلام
يمرض له فيه بعمله وصناعته مسترسلا في الدعابة مستهترا
بالمجون متبسطا في الفكاهة لما استطاع ان يضرب على اوقع من هذه

النغمة . فليت شعري بأى ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين
تباعد القطبين ؟؟ ابذوق الشاعر المفطور الذى يفرق بين شبهات
السرائر وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه أخفت همسات
العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟؟ يقولون أن أذن الموسيقى
المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر
ينبغى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الأحساس
المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمر شعراء لا يميز بين
احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان -
أحدهما لا تحسه النفس الا فى أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط
والانشرح ، والثانى انما يخامرها فى أقدس مواقف الموت وأجلها :
موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته . . لا الا هكذا فليمت
الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن فى دار الخلود .

مه ! مه ! أن من السخف لما تعافه الجيلة وتقرز منه النفس
تقرزها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمنونا بلادة
الأغبياء بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقلده لانه كالورم الذى
يخيل الى الفر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن وروثى الصبا
فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقرزا أن يرى الدمايل
مقبلة مرموقة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين فى بقعة واحدة فاشمأزت نفسه
من رؤية عاهاتهم ومقآذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر
فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة
يستحسنون مثل هذا الشعر على غثائنه وعواربه بل هو لا يروقهم
الا لما فيه من غثائة وعوار - خلائق كل ما نستطيع أن نعلل به هذا
الاعوجاج فى طبائعها وأذواقها انها تلفت لفرط ما أخذت الى الكسل
والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التى بقى لها أن تعنى بها وتكثر
لها ونفلت لشدة ما توالى عليها من عنث الدهر وذل الحوادث والحاج
الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبتها هذا البلاء للآزب
شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبتها العجز عن احتمال الجد والتمادى

في الهزل واللجاج في السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للدوق السليم فأصبح جهد الدوق في زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنت الترف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط هنوانا على ارتقاء الدوق الانساني وحسن استعداده وانما هما نقيض هذا الدوق واقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية - الا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الادميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش احشائهم وتقضم عظامهم وتلع في دمائهم وهم يسمعون آثيهم ويتلذذون بأوجاعهم كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب !! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد !! كانوا في عهدهم الذي بلغوا فيه من الترف ونعموة الاخلاق مالم يروه الرايون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الدوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات الا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد انه توفى هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية الله أحيى المومسات

يامر الشاعر المرثى ان يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية ... فيحسب السامع ان الآية التي سيراها الدفين بعد بعثه اعجب واخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم ان الاعجوبة التي يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هي النظر الى ميت يبعث ... فهل سمعتم في العى والاحالة ما هو أحق من هذا اللفظ الفارغ الخاوى ؟؟ اليس هذا كاتقاص النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض في المسارح للمتعبين ؟؟ وعلى

ان بعث العلامة المدرج في اكفانه اغرب واشد استحالة من بعث الموميات التي يعنيتها شوقي لان موت الأمم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الافراد حقيقى لا رجعة منه في هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الأستاذ غالب أن يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه في ضريحه ، لا شيء الا أن يرى المعجزة التي قد رآها . . . وبعد فليذكر شوقي أن الذين يدعوه بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فان كان هو شاعرا لاحد فهو شاعر الموميات ، وان كان لشهرته حد فهو اليوم الذي يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من الثرى وتحركات منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » بإقامة الاموات !! فهو ينادى عثمان « قم تر آية » ويصيح بسليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الامام شامتا « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم أن اسطعت في سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره . . أفلم يكفه قيام الاحياء حتى يقوم له كل من في التراب !!!

ولم ينس شوقي براعة المقطع فختم القصيدة باليق بيتين يتمان ما فيها من خلل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله فاتى باحدى المعجزات عيسى الشموه اذا مشى رد الشعوب الى الحياة

ففى كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد الم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول أحيانا . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما فى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يظن الى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئا واحدا ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحياة هى التى تنشئ الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس اسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفوا لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به انها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارئ شاعرا من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعا اول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكتافها ويتحرى عجائبها ويستكنه أخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، الى أن سيق اليه ضيعة من صنائع شوقي فأسمعه أن ها هنا شاعر يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الأرض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الاقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين - الى أشباه هذه الألقاب ، هذا الرجل يستمع ويعجب أن يتقق ذلك لأحد كائننا من كان في العالمين : وقد تعلم أيها القارئ أن اذكاء الغربيين وخاصتهم لا بالقول الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الاقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والأرض والسماء ، وان كان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أو جيتى بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبقات كتبه - مسوغ لهذا اللقب . فلا بد أن يلمح الشاعر الغربي في تلك الصفات التي سمعها مغالاة وشططا . بيد انه يجب

ان يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وأن يعرف الممانى
والمثل العليا والخيالات التى اذا نطق بها الشاعر وجد فى مصر من
يعمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ
ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى ،
فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون
هى قصيدته فى استقبال اعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانح
من جماعة الأطباء السائرة فى الرمل ومن جماعه الأطباء .. » وهو
ترجمة قول شوقى :

ائن عنان القلب واسلم به

من ربوب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه
والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا
انه يتوهم أن فصائل الأطباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم
فى هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها
وعراهم . ويود لو يرى هذه الأوابد الاريقية فما هو الا أن يسأل
صاحبه فى ذلك فاذا الجواب حاضر يلقي اليه بابتسامة الأستاذ
لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس فى بلادنا طباء مخيفة ولا اليفة
- ما الى هذا قصد شاعرنا ، وانما هو يعنى النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا
فلا تغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فأننا
نشبه المرأة بالطبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الطبية
الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة
طبية » .

نقول : ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربى هذا التشبيه على

انه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهمك : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا ادرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لايد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما اشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذلك الافتراض : « ولماذا ؟؟ ان الشاعر ليتفول على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الاقدمين » .

فيافجا الرجل ويجد انه قد احوال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضا ان يحيل التقليد في الفول على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك في نهضة الأمة ليكونن اذن بين قرضين اثنين ليس واحد منهما بجائر في العقول : فاما ان الشرقيين وكبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا احب السلف العربي الى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون ... وهو مستحيل . واما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون في ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض احدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس اقوى خوالج النفس واعنفها وهى غريزة العشق الجنى . وما خلق الله لامرء من قلبين في جوف واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه اخذ يفهم بعض الفهم ويقول لترجمه : « اخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « ان الفريبيين كما يتسلون احيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين او يتزيون بزي الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا

باحتراف أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الفسافة .
رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الإحتذاء عندهم لا يعد من
جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة .

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات
يحسبها اخانجى وألغازا . ويظن انه يلذب عن شاعره المزدوج الألقاب
حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب
بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا
وانما نظمها في مستقبل امة ناهضة .. وتحية لزعمائها ..

الى هنا ينتهى العجب باليقين - فان كان الرجل قد ارتضى
التقليد فى التشبيه والفزل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب
الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام
فى نهضات الأمم بالفزل صادقا كان أو مستعارا ، وان يفهم الابتداء
بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلء ، تمهيدا للثناء على
ماثر العظماء ومناقب الزعماء ، وان يثن ويتوجع ، فى حيث يفخر
ويترفع ، وان يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصيح
والاهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وان
اعوزته دلائل الحكم على منحى افكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا
فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج ان يظلم أو
يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معدودا .

* * *

ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربى لان فهم هذه
البسائط وقف على الفريبيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم
بساطتها ان يفهموا على اى وجه تلوح غثائت التقليد لمن خلصت
عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح
عليها . والا فالى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ريقه

التقليد لا يشعر لأول وهلة بالخلط الشائن في هذا الضرب من الشعر؟؟ ما الشعر الا كلام فان كانت له ميرة على الكلام المتبدل فميزته انه اجمل وابلغ واحسن وضعا للمعاني في مناسباتها . فهل يتكلم الرجل في السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل ان يخلط في قصيدة واحدة بين ابعاد موضوعين عن الانتظام في نسق واحد ؟؟ فلو انه كان صادقا في عشقه لقيح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاغته بين الملا ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!



لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نوى تبيع ذكراه ، ومعاهد صبوة. تذكى هواه ، هجيراه كلما راح او غدا حبيبه يحن الى لقاءها او صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر في الأغراض التي من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة لم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وفسان وفارس وينتجعون الأمراء والأجواد في أقاصى بقاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يداونها أحيانا بوصف ما تجشموه في سبيل الممدوح من فراق الأحبة وآلم الشوق وطول الشقة وأحيانا كانوا يصفون الناقة التي تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظما والطوى ومواصلتها الليل بالنهار سعيا الى الممدوح كناية عن الشوق الى لقاءه ، وكان الغرض في الحاليتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل في مثوبته، فكان الابتداء بالغزل ووصف الطي في قصائد نظمت في المديح

وما شاكله من اغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والاستاذ فاقاموا المتقدمين اساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يقدون على الامصار فينهجون نهج اسلافهم مطبوعين أو مقتدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وأفرد كثيرا من الغزل في قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نؤاس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك في العظام كما صنع أبو تمام في يائته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفي رائيته التى اولها .

الحق ابلج والسيوف عوار فحنار من اسد العرين حنار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نبوضه الى الروم فقال مفتتحا :

**ذى المعالى فليعلون من تعالى هكنا هكنا والا فلا لا
حال اعنائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا**

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من ارض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الراى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهى المحل الثانى

وكما صنع الشريف واضرايه في كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار او انعدم ونشأ من شعراء الحضر جيل كان احدهم

يقصد الأمير في المدينة وأنه لعل على خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التي اجتازها والمطايا التي انضاهها وحقوق الصبابة التي قضاه . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المدح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال . . . ، يجيء شوقي فيتماجن ويتصابي في مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قد صارت الحال اليجدها وانتبه الغافل من لعبه

ويجىء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وأنه عصرى بل انه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذي استحل لأجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الإجابة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداء وان حق عليه اللوم لوضعه في غير موضعه - ولكنه هو الغزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظاميين والشعاريين بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه في وعاء هذه المعاني التي نضج بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعي العروض لم يقل في وصفه : « قد يتثنى كالبانة » « أرداف مرتجة كالكتبان أى كأكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالأقماء أو كالنجوم » . « مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » إلى بقية تلك الكناساة الشعرية المنبوذة . وهذه هي روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها

الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدبرة وإنها خلو من الأسباب
والحجج التى بنى عليها الكاتبون رأيهم وأما الكلام الشعرى فيه
ففى بيت القصيد أو بيتيه وهما :

قطروهم كالقطر هز الثرى وزاده خصيبا على خصبه
لولا استلام الخلق أوسانه شب فنال الشمسى من عجبه

وأنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر
فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن (مكره
أخوك لا بطل) .

ولا اسهب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين
منها القارئ مبلغ ما يقعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ،
وأن فى الأطفال اللامعين خيالا أظن وتمييزا أصفى من شاعر يعكف
على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الأمريكية منها مناظر
خاصة لأطراب الصفار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن أشدها
غربة المطاردات الجامحة التى تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك
الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والأوانى . وهى كثيرة لا أظن
زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها - حضرت منظرا
من هذه المناظرة فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يمدو
ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة الى أن
وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارود يمدو خلفه فى سيارة فوئبت
به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه
العجب فيشب ضاحكا . وما أخالهم إلا كانوا مصدقين ما يروونه
وأنما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال ... فليت شاعرنا
الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع
ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم أن طيران القطار بقاطرته

ومركباته في الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل
 ان يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شابا فوق الرأس في
 طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرسلاته يمنعونهم
 ويكبحونه - لقلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالأغراب ، والأمر
 بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا أنهم
 يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية
 كهذه الرقية الهزلية : « الحمد لله الذي لم يخلق للجمال أجنحة
 فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ » .

أما ان القطار كالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيهه
 لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأي قرينة من القرائن
 أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من
 المنفعة . على انه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار
 والقطر غير التجانس في الحروف . وهكذا تتعلق أشعار المقلدين
 بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقى كما قلنا في أول
 المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا في غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق احدا يتقبله ويحلله المزللة التي أحلته فيها لجنة الاغاني والالحان . فان المنا به الماما في طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهى توقيف بعض القراء على قيمة احكام اللجان ، وانها في اكثر الاحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب في مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما في أوروبا فربما بلغ من تهاون الأدباء بشأنها أن يطبع احدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهاور التي كتبها في الاخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطتة الأبد .

تصدت لجنة الاغاني للحكم في اناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة - وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة في واحد منها . فمن شروط الحكم في الاناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الالحان على المعاني ، مطلعاً على اناشيد الأمم ، بصيرا بأخلاق الجماعات وإطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الراى والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟؟ اننا نعرف من بين أعضائها أناسا نبجل ذكاءهم وتكيز فضلهم في علومهم ونراهم أهلا للحكم في أعضل المشكلات التي

تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق في شيء لا يفيد التفوق في كل شيء .
وإذا علمت أن الرجل من الإخصائيين يقضى العمر في فنه باحثاً
منقباً ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطئ ويبرم اليوم ما نقض
أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم
يدع الحلق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل إلى
انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة
وقبلها نشيد شوقي المقدم اليهم غفلاً من الإمضاء ، ولا ندري لم
تكلفوا اغفال اسمه وراوا ذلك شرطاً ضرورياً لنزاهة الحكم ثم
سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر في
الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء
إلى رفضه ؟ بل لا ندري لما أراجأت اللجنة اجتماعها موعداً بعد موعد
وتعملت حتى يتم شوقي نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيداً ؟
أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع انشودة
واحدة ؟؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين في إحدى الفرق
يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق
وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر في أناشيد مجهولة ،
واسرار مكتومة ؟؟ فهل سعى النشيد وحده إلى دار التمثيل ؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقي وحرصها على
اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مأخذ وعيوب ، نبه إليها بعض
الفضلاء ، وردته إلى صاحبه ليجتهد في إصلاحه قبل إذاعته من
قبلها . وذلك أن عضواً عاب قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعسر ركن
ليس لكم بوادي النيل عدن ؟؟ الخ الخ

وقال إن البيت الثاني منبتر ، وسال : ما العلاقة بين النصح

ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والنيل بالكوتر؟؟
فوافقوه على انتقاده . وأنكر بعضهم تأليف البيتين الاتيين ومعناها:

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفنا الصليب على الهلال
واقبلنا كصف من عوال يشد السمهرى السمهرى

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى أن احدهم قال :
اننا نجعل مصر وطننا يشترك في حبه ابناؤه ، وأما ملة ذى الجلال
فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال »
وهو انتقاد سديد فأننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون
الاسلام والمسيحية واليهودية؟؟.انما يقال اتحدوا فى الوطن واتركوا
الدين للديان ، ولا يقال اجملوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا
قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة
« كصف من عوال » أفرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا
نحمل تبعته . ويظهر أن النباظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع
المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على جالها .
أصلح هذا البيت .

نموت اليك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المغدى حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله « نموت اليك » لأنها لم تسمع فى
كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت
وضاك مصر الخ » - وقد نشر كذلك فى صحيفة الاخبار - فلم
يقتنعوا . فجعلها أديب فى النسخ الأخيرة «نموت فداك» فاقتنعوا!!

ونذكر ايضا انه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين
جىء بهم ليحكموا فى اى الأناشيد أصلح للفخر القومى وأشد اعتلاجا
فى النفس وابتعانا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديره فى
اللحن الذى يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه

الوانى فتضطرم نفسه عزما ، واليائس فيهمج الى الامل قدما ،
والعدو فيتضعض قلبه رعبا وغما .. وليكون اللحن صوت الامة
فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر اين ذهبوا بهؤلاء
المظلومين هل تعلم بين من نسम्मهم من مغنينا من ينطق بلسان
النفى بائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ،
وصارخة ومبتهلة ؟؟ وهل فيهم من يروى بانغامه عن جلال الحياة
وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغى ان تكون الموسيقى ؟؟
لقد علم كل انسان ان ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى
ولكنها اصوات اللذ والضرعة والحن ينشدها النائم فلا يستيقظ
ويسمعا الصاحى فينام .

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا
وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار بخلد احدهم انه على غناه
يطمع فى مائة جنيه يحتجتها لنفسه فكان بهم الاعضاء ان يفوز هو
بالجائزة الموعودة ، وجلهم من اعضاء نادى الموسيقى ، والنادى
بحاجة الى اعانة المتبرعين .

ولا ننس ان اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل اليه
هدايا شوقى . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال
رايه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف اصحابه انه يتقى ان
يرمى بالحسد ان اوما بالنقد الى قرينه . ومن غراقبه انه كان
ينحى على التشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما اعلن
الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكّت .

وعلمنا غير ما تقدم امورا لا نحب ذكرها . ولهما ذكرناه دليل
على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى التشيد غير آبهين للحكم له
او عليه ، وليكن قياسنا اياه ان نلتبس فيه ايسر الخصال التى
هى قوام كل نشيد ولا يجوز ان تخلو منها الاناشيد القومية .

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون

وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب
وموافقا لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب في أناشيد الأمم . فهل
نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط
أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس في النشيد بيت يدب له الدم في عروق
منشده . وكل مفاخره أفرغت في قالب هو أقرب الى الأخبار منه
الى الحماسة . واقواها قوله !

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه اخذ الامانا
ونحن بنو السنا العالى نهاما اوائل علموا الامم الرقيسا

وليس في هذين البيتين من نشوة العز ما تهتز له النفوس ،
وليس فيهما قوة لا تجد مثلها في قول من يقول « كلز لى بيت سعته
كلدا من الأذرع . باباه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع
النوافذ ، الى آخر أوصاف المساحة .. » فأتى فرق بين قص
المعلومات والحماسة اذن ؟؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه
ثم عن أعتات المقيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا
واستعصى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت »
سيلت و « تهيأ » « تهيأ » و « شيئا » شيئا : نعوذ بالله من الشئ .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنى مصر مكانكم تهيأ	فيها مهدوا الملك هيا
خفوا شمس النهار له حيا	الم تك تاج اولكم هيا
على الاخلاق خطوا الملك وابنوا	فليس وراءها للعز ركن
ليس لكم بوادى النيل عدن	وكوثرها الذى يجرى شهبها

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟؟
! اجنبى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطنا شوقي مطية الفلسفة والواعظ بعد ان ركب
حمارها بيت واحد سوقى المعنى وهو قوله :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا فى كل مكان ومقصد . حتى طلع
لنا باذن حماره الفلسفى هذا فى موعظته « على الاخلاق خطوا
الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك او شمالك ..
فكانما كان شوقي على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ما أمكنه ،
وكانما لهذا احرز السبق لا لان نشيده كان كما وصفته اللجنة
« اكفاها واوفائها بالفرض واجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسقى
لنشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من
كل شرط يتسقى للانشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار .

وفى المقطوعة الاولى خطأ تاريخى ما اظرفه فى نشيد امة تفتخر
بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر
مصر وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . واما
تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد
وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة
الاولى فى المدارس الثانوية ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا
يحلون بها بصور الطيور المعبودة او التى يرمز بها الى العبادات ولم
تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجان .. فياحبذا النشيد تتفنى
به امة فيكون مطلعها عنوانا على جلجلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارئ ان نأخذ على شوقي مبالغته فى قوله : « خلدوا
شمس النهار له حيا » فاننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه
تاويل .

واما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل
طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا تتخطى به فى
جميع العصور ان يتهيا مكاننا . وان لا نبرح نشرق فى التمهيد وناخذ

في الاستعداد وتبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشيد الأركان ، وما علمنا شاعرا قوميا يطلب اليه أن يكون فال الأمة وهاتف مستقبليها فينصب فيها نقيب النحس وينلرها جمودا لا تتزحج منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الأنفة ، وأجهل ما يكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعتسا البصيرة أن يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومى ، أى دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترتله في البيعة أو تشدو به في الكنيسة أو تصلى به في المسجد ، فيخيل اليه أنه اذا جمع فروق الأديان كلها في جملة واحدة فقد أتبع له هذا الغرض . فيستشفع في دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟

يكون أن الاسرائيلي يحرم هذه الصلاة في بيعته لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد - وأن المسيحي لا يدعوا الله به في كنيسة لأنه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الاسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسالاته فحسب وأن المسلم يصلى به وحده فكانه لم يشر فيه الى دين غير دينه ، وأن الدعاء القومى لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو أن طاهيا صناعته تجهيز الموائد قيل له أن ثلاثة من المدعوين في الدار ليس يشتهى أحدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج اطعمتهم كلها في صحفة واحدة لطرده من فوره فاعجب لشاعر قوم يفغل حيث لا يفغل الطهارة ويفرق في غفلة الذهن حتى أحسبه أحيانا يعتمد الامعان فيها ويطرقها من الباب الذي يفضى به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الأديان أجمع كي تكون شفاعاة لكل دين ، عمد الى لصق الأنبياء نشاة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذي لا يناسب هذا المقام ، والذي

لو كان هو وصفه الغد لا سواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه
« بالهارب من الرق » فهل يدري تساعر مصر من رق من هرب
موسى ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد
نجد في خفراء الريف كياسة تمنعهم ان يطلبوا الاقالة بما يذكر
بالذنب ، او يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله
ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية
فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العبارة : وقد
قراناها لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه في النشيد أخف
واهون ، من حيث أن الأناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس ،
لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد اننا لا نرى معنى
لزوج الأديان في الأناشيد الوطنية ، فقد كان يكون ادل على الوفاق أن
لا نجعل وفاق الأديان مباهاة ومآثرة ، لأن المرء يباهى بالشئ النادر
او غير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والمتبدية أليس فيها مذاهب
مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر
الدين ؟ ؟ أترأها لا تحب أن يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا اننا لا نقصد الى الافاضة في نقد النشيد ، فكنا
نقارنه بما نعلمه من الأناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية
قيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخذنا من مساوئه ما أخذنا
فليس يسعنا ان نهمل مأخذاً سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء
بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين احدى
مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزاً وفخراً

فلما آل للتاريخ ذخراً

الخ الخ

نشانا نشاة في المجد اخرى

ويقولون أن التنوين لأبد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت فإذا انتهى المنشد مثلاً الى كلمة « فخرًا » ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد في موقفه والملحن في صنعته

نقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هذه الامة شعاعاً ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة - نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشيد الثانى ومن اجترأ اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارئ اننى ما كنت اظن فى جمهور قراء الادب استقلالاً يقاوم تأمر الحكيم والصحافة وسامسة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة ونزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشيد المنشورين ، وفى هذا الاستقلال امل نفتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومي

واينا ان نشتر هذا النشيد بعد ما كتبناه من نشيد شوقي
ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذي يخشاه شوقي من التفات
الاذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر
بعد شيئا من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الأرض باسمه كل يوم
منذ نصف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى
على أحد . وقد اتصل بنا أنه كان ثالث الاناشيد التي اختارتها
اللجنة فاذا حسينا للمحابة حاسبها جاز ان نقول انها حكمت
بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القاريء التفاوت بين
النشيدين حتى في الخصلة التي اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب
هنا أشبه بمناجاة النفس وهي في نشيد شوقي مخاطبة اجنبي
معتزل للشعب الذي يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بني النيل واحفاد الالى
اطلموا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والمعالم لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم
اذكروا ان ترى هذا البلد
من تجاليد الجنود العقلماء
لا تطتها ارجل المعادي الالذ
وبكم أبناءهم بعض الذماء
تربها التبر المصفى المنتقد
لا الذي يقنى الشحاح الادنياء
فامنسوا كنزكم ان يبذلا
او تعيشوا عمركم عيش عديم

لن تروا في الأرض عنسه بدلا
 ما لكم كنز سوى هذا الأديم

 اذكروا ان عليكم واجبا
 لبنيننا في بطون الأعصر
 فاحفظوا هذا التراث الواصبا
 فهو حق الوارث المنتظر
 نتقاضى الارث عصرا ذاهبا
 فلنصنه للعصور الأخرى
 سنؤديه اليهم اكتملا
 لم يفيره زمان أو خصيم
 فحصى مصر تحاماه البلى
 وبنوها خير من يحصى الحریم

 اذكروا حاضرکم كيف يقام
 ليس يفنينا تلید القدماء
 ما التماثيل المهيئات الجسام
 وابو الهول رهين الصحراء !
 ما المسلات على باب الرجام
 والنواويس وفيها المومياء !
 ما عظيم تالد من العسلا
 في ثنايا حاضر غير عظيم !
 فاجعلوا عهد العسلا متصلا
 كاتساق الدر في العقيد النظيم

اذكروا مهما بلغتكم سؤودا
 انكم لم تبلغوا أوج الكمال
 ابعثوا فوق المنال المقصدا
 فبنو الشمس لهم اقصى المنال

كم عبدنا قرصها المتقدما
 فاتقدنا في حماس ونضال
 نبنتى الهيكل يتلو الهيكل
 خالدا في ساحة الرمل مقيم
 وسيبقى موطن الشمس الى
 يوم لا يبقى لها قرص ضريم

 اذكروا ان التفانى والفلاب
 في سبيل المثل الأعلى البعيد
 نفثا فيكم وانتم من تراب
 شعلة غراء من معنى الخلود
 شعلة تجلو عن الحق الحجاب
 وتصفى النفس من رجس الوجود
 فاضرموا في النفس هذى الشعلا
 اضرموها تكفلوا الفوز العميم
 مثلما اضرمت النار على
 مئذج الرب بمحراب كريم

 اذكروا ذلك وامضوا قدما
 لا تكن وجهتنا غير الامام
 تزدجينا دقة القلب كما
 يقرع الطبل لجراد لهام
 فنسوغ الموت ذودا للحمى
 ونذيل العمر سعيًا واعتزام
 فبحق نحن احقصاد الالى
 اطلعوا القجر لتاريخ قديم
 رفعوا الاهرام والمسالمة لا بيتنى
 الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صدقي

صنم الألعيب (١)

شكرى صننى ولا كلاسنام . ألقى به يد القدر العابثة فى ركن
خرب على ساحل اليم - صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم
« ارستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على
جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و - لم - لا يخلق الله
والمضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها واشعرها الحاجة
اليها ؟؟ ولم يلتزم فى الانسان مالا يتوخى فى سواء من وزن واحد
وقافية مطردة ؟؟ .

هنالك اذا على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى
بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبر القدرتين : هنا تبع
مزيد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحياة متجددة
وأواذى متوثبة متولدة - وههنا نفس خامدة وقوة راکدة وجبلّة
باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها غلذبات
الاشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الاصال وروعة الاسحار . ولا
يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تفتّح عن أنق الأزهار ،
أو القمائم ترسم فى صفحة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة
فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذبوعها وانتشارها بل « وثبها »
من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر
مدى البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر

في الصباح الليل وقد انقلب اكتمسه الانداء فتساندت رؤوسها
 كان سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .
 كلا ليس في كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك
 هذا الصنم لأن باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس
 نفسه وصار لا يتقده منها ومما منته به من صنوف البلاء الا أن
 تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول
 لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا اغنيا
 عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين أنقاض حياته
 يتوهم أنه ملهب الموج بسياطه ومدير الأفلاك بتدبيره وحكمته .
 يقول كلما اعجبه شكله أو حاله أو آثاره نبذه واهماله « أنا اله
 الشعر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على افرز البحر وترميه
 الأمواج برش من سخرها وتسك أنقابه برعد من ضحكها فما أجله
 من اله يتضحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! والناس العذر
 اذا كانوا اسلم فطرة من أن يكثرثوا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين
 واذا تركوه غارقا في طوفان من الأوحال النفسية مدفونا في قبر من
 بكمه العجيب . واى بكم أعظم مما أصيب به هذا المنكود الذى
 لا يكفيه أن يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا
 ورسولا بدين هداية في الأدب ؟

وأنت أيها القارئ قد تعلم أن سر النجاح في الأدب هو علو
 اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء وأن على من يريد أن يشرح ديننا
 جديدا « لأطفال » هذا العالم أو أن يحدثهم بما أحب أسلافهم في
 سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه أن يذكر أنهم لم
 يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاسمراؤه وانه لكى يغريهم به ينبغي
 له أن يتوخى القوة في العبارة عما يريد فان الناس خليقون أن لا
 يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان .

وقلما ظهر كاتب أو شاعر الا بالأداء وكثيرا ما يمتاز بعض

الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن آراء غيرهم كابى اسحاق الصابىء كاتب الملوك والامراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين واصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب فى تاريخ العقل الانسانى والذين يستطيعون ان يستغنوا الى حد ما عما لا مسموح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الدهن المشوب والمواطف الدكية تكون الحاجة الى ضرورة فن الاسلوب .

ولعل هذا اكبر الاسباب التى افضت الى خمول شكرى وفشله فى كل ما عالج من فنون الادب لانه لا اسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء ان يجيل نظره فى كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شىء من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه ان يرى ان يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل» كما يقول الرياضيون - من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس اصدااء متقطعة لاصوات مألوفة لا وموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك فى موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا ان شكرى على كثرة الشكوى فى شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس امره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمى للشعار مقتنرا (?) والقوم فى غفلة عنى وعن شانى
هذى المعانى تناجيهم فما لهم لا ينصتون بافهام واذهان ؟

وتعزيه بان الزمان سينصفه وبديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان الى حكم الايام فى قوله :

لرمى بشعرى فى حلق الزمان ولا ابيت منه على هم وبلبال
مجاراة للمتنبى وتقليدا له فى قوله :

انام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختتم

تقول يخيّل الينا ان شكرى لو شاء لفطن الى سر هذا الخمل
وعلة ذلك الاهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهم
مقتد بحثوا في شعره على شىء جليل يروع أو حسن يلد ويمتع أو
مستظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة
فلم يجدوا عنده غناءهم والفوه يريد أن يجعل نفسه هزوة السخفاء
وضحكة الفارغى القلب والعقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر
الاملاى الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية
كلها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارئ الا أن يحس أنه أصاب
موضع الداء . اما شكرى الذى أراد أن يقلد هينى والذى زعم أن
العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وان « أدرج » فى قبرى قتيل الحب والياس
فمن يصدق بالشعر ومن يسخر بالناس

هذا الساخر العظيم والصيدح الفريد والرسول الجليل
لا يطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرّب آماله الى سمو قلق وانما
غاية ما يرجو فى حياته أن يفوز به على قدر ما استطعنا أن نستوضح
غرضه من ايماءاته الخرساء - وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهلأ
ثورته اذا بلغه هو أن « تمر به الحسان فترتضيه » !! هذا هو دينه
الذى يدعو الناس الى عبادته ولا ينفك يشكّوهم الى الزمان
ويشتهمهم ويرميهم بالفباء لانهم لا يستمعون اليه . اليس هو القائل
فى بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه :

كفانى من نبية الذكر انى تمر بى الحسان فترتضينى

ولا أدري ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز
فيه انه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه فى معرض
تمر به فيه وتجسسه بعيونها واكفها كما يفعل الصبيان باللعبه
والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الأقل اذا كانت همتهم
ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى انه عجز عن ايضاح هذا الفرض الضئيل اذ من الذى
يستطيع أن يفهم شيئا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج
أن يقول فى نفس القصيدة التى انزل فيها دينه على الناس وأطلقها
من قيود القافية - والوزن احيانا - لكيلا يعوقه عن التحدر شيئا
معاتباً الغرام :

انقصينا ونحنن مقربونا

من التبيان والأدب الفسزير

ولعمري ما عدا الواقع فى قوله انه مغرب من البينار والأدب
ولكن التقرب منهما شئ وورود شرعتهما شئ آخر ، وهل بل طرف
لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شئ يعوق الطماح فيخطى الأجل ويصمى الأفلا

ولو سئل هو بنفسه فى معناه لضافت عليه مذاهب العول و من
يقول فى صفة المشنوق :

ضافت الأرض عن ماتمه فاء تناض عنها برقة الملحد

كانما حسب المرزوء فى عقله - أن كل ما فهمناه من البيت هو
المقصود - أن المشنوق سيظل معلقا فى الفضاء الى الأبد أو أن
الأرض تضيق عن شئ من الآثم أو المحامد أو أنها هى التى لفظته
وأعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن
شكري متكلف لا مطبوع وأن ما يزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد
فى الشعر باطل انه هو نفسه قال ينمى على المتأخرين حماقاتهم
وسخافة مناحيهم .

« وإذا صلب أحد الأمراء قالوا ان قاتليه اجلوه فلم يرضوا له
القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد المات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الأكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر في قلب الحقائق واظهار الدميم
مظهر الحسن . . وليس ادل على جهل وظيفة الشاعر من قرنهم
الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر
لها وليست حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق
المقلوبة ووضع كل واحدة منها في مكانها الخ .

فما احلى هذا الكلام واصدقه وما ابعد قائله عن العمل به
وادناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول
« كله عبثا لا طائل تحته » او ما جدره أن يكف عن دعواه أنه من رجال
المذهب الجديد في الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء
باعترافه . اترى هذا المفتون يحسب أنه يستطيع أن يخدع الناس
بهذه النظريات التي ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما
كان شعره من النوع الذي ينعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن أنه
يكفى أن يلوك المرء جملا كالبيغاء ليكون في نظر الناس حديثا سائرا
مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر أن هذا هو الذي يعتقده
شكري فينا تراه يقول في مقدمات ديوانه « أن الشاعر الكبير (مثله
بالدهاة) يخلق الجيل الذي يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له
في بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

بيت النمدى فوق الزهور مرققا

كما اتبعث الطل الرقيق ليقطرا

او قوله في فلسفة « تراوج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما

ومهرها الحب لا يفلو لها المهر

من لى بنفس ادى نفسى بها مزجت

كما تمازج في ودياتها الفسدر

والنفس في عيشها شتى منافذها

منها القلوب ومنها السمع والبصر

(المقصود هو البيت الأخير) فأى جيل يريد هذا المائق أن يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السين كما ينطقها هو) أما كفى أن فى الدنيا سخيها مثله حتى يطلب أن يوجد من أمثاله جيل برمته ؟ وأى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ وأى خطب يكون أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كاننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !
وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلى أن نورد للفراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال :

ناصر صروف الدهر مستقبلا	قذاله لو جزته اقصر
فجز من لته خصلة	لعاهها من خلفه ترفع
قالدهر إن اقبلت ذو لمة	لكنه من خلفها اقصر
مطلعه مثل طلوع المنى	وحسرة ما خلف المطمع
ولا ترم بالدم صفعا له	فانما يصلع اذ يصفع
قراعه مثل قراع الظبي	وانما يقرع اذ يقرع
فاطل قفاه بهداد لعل اللون من روقته يخدع	
وغض عنه نظرا واعيا	فانما يمديك ما يطبع
وان جرى فى الدم كره له	فخير ما يجدى لك المبضع
حجامة لا شك فى نفهها	وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صحبته انه	بالرغم من صالغته أروع
واحن له الراس لكى لا ترى	فانها من خلفه تلمع

ونحن انما نمثل لبيكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التقريب لان له أبياتا مبثورة فى أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا لا منبؤذا كما هو الآن . وما بالعجب أن يكون له بضعة أبيات

مفهومة فأنك لو جلست ساعة الى مجنون أبله لجرى لسانه
بجملة او جمل تلمح فيها أثر العقل . وان كان لم يفكر
في مبلغها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الداهل المضطرب
انتباهات فجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرء فيه وقد جمع
صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفا في الذهن واضطرابا في جهاز
التفكير لم تنفع في معالجتهم كثرة القراءة والاطلاع على خير ما
انتجت العقول . وقد يعلم القارئ او لا يعلم ان الاطلاع قلما يجدى
اذا كان الاستعداد مفقودا وكان الذهن غير مستو او صالح « لهضم »
ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد
بالموجود - كالمعدة الضعيفة لا ينفعها أن ترحمها بألوان الطعام
وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول
من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه
حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقري (يعنى نفسه ايضا) بذلك
الشره العقلى الذى يجعله راغبا في أن يفكر كل فكر » ولكن ما به
ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة
كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكرى ولعله من أسباب
ضعفه العديدة فإنه يقرأ حتى كتب المفاريت وقصص السحرة
والمردة والجان لما وقع في نفسه من أن هذا حقيق أن يقوى خياله
ويجعل له أجنحة يحلق بها في سماء الشعر وفاته هو وامثاله أن
الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحفيفة وأن كل كلام ليس
مصدره صحة الادراك وصدق النظر في استشفاف العلاقات لا يكون
الا هراء لا محل له في الأدب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان
المواطن وضعف الروح تعيش في عالم الشعر ؟

وليس في الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفي العمق
لان العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء
ولكن مع الوضوح والجلاء اذ أيهما احوج الى النور يراق عليه
ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهي تمتد وتعثر به الرجل وهي تخطو

أم ما يقوص عليه المرء في أغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل اما على
المعجز عن الأداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة في ذهن صاحبها .
على أنه من افحش الخطأ واضره بالاستعداد واشده افسادا
للفطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة
النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمل فان العقل الصغير
اذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل
الى غايته من طريقه ولا يجس الحاجة الى قوة العقل الكبير .
وقد ركب شكرى هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن واراد أن
يكون شاعرا وكاتباً من الطراز الاول وظن أن الاجتهاد يغنى غناء
الاستعداد فلا هو بلغ اية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على
خلقه الوداع وقناعته ببيسور العيش ومنزل أنزله الله وحال
البسه ايها .

ولما كان السقم في الكلام مرده السقم في الدهن فسنبدأ نقدنا
بالدليل الضمني المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب
ببيان الفساد الذى اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصي سرقاته
واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

لا نقول أن شكرى مجنون فنحن أرفق به من أن نصدمه بذلك
واعرف بحاله وبأمراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء
والتذكير والالاحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر
- خاطر الجنون - وان فكرته ماثلة لعجو حياته والخوف منه
منغص عليه كل لداته وعلااته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن
أو يقال له أنه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسمك
والبيض والمخ واشباه هذه الالوان - وان ذكر هذا اللفظ على مسمع
سته يدخل في روعه أنه هو المعنى به فيمتقع - ولا يخفى أن اتجاه
الذهن له دلالة خاصة وهو قرينه قلما تخطيء اذ لماذا ينصرف المرء

الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدوانه وفي طعامه وشرابه
ويقتضه ومنامه وفي أقواله وكتاباته من شعر ونثر - أو منظوم
ومنثور على الأصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخذ به وحده
في البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . وأكثر أهل
الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ والجنون
والعبقرية بسبيل وهما في الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما
متماثلتان ، فالعبرى ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات يتمخض
ابدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والأصوات والألوان لا تفتن
اليها عقول الاوساط . والمجنون في ذلك نده وقربه وكلاهما ترجع
مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط في بعض نواحي المخ أو
فتورها أو قابليتها للتنبيه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا
والجنون عبقرية . وقد فطن الاقدمون الى هذه العلاقة ولمحوها
وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج
- كما يقول أفلاطون - الشعراء والمخترعين والانبياة أما الجنون
المألوف فهذا عقيم نعيم صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغي أن يتوهم
أحد أن العبقرية هي الجنون فليس أفحش من هذا الخطأ ولا اقتل
من ذلك الظن لأن العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادى
وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب في التوازن العقلى
والعصبى .

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير
راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل
عليها وبرهقها به كأن يكتب جزءا من ديوانه في شهر واحد حتى
كانما هو ماجور على ذلك ومشروط عليه أن يتمه في وقت محدود .
وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال أن حدثته نفسه باحراقه
بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من
الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج
للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى أن يخب به المرض ويوجب

بعقله الداء فلا يستطيع أن يصدق بالشعر ويسخر بالناس !!
وماذا أجنأه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكانما هو حجر وقع في بحر
فلا هو « صدح » ولو في حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء
عقله .

والى القراء أمثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » .
حنينى الى وجه الحبيب جنون جنون يهيج القلب وهو شجون
وقال من قصيدة الدفين الحى :

فهاج هياج الشر فى الأسر طرفه وأدركه حتى المسك جنون
وقال من قصيدة غاية الحب :

وان كنت عندى جئت بالمقل والحجى

وان لم تجىء فالقلب مجنون فائر
ولكن وجئت منك جن جنونه فها أنا من حبي بحسنتك هائر
وقال فى « طبع الانسان » :

ان بالمرء جنونا جاعلا نوبة للشر فيه تحتم
لا ينال البرء من نوبته او يذيع الشر منه والالم
وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت معدى من
لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى ملامح لا تخفى تناديك بالجهر
اذ من الذى يستطيع ان يدعى ان فى كل وجه ملامح من الجنون
ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون » :

هسى ان تجن النفس فيكم جنونونها
فلا ذكرة تصبى ولا فكسر يخطر
فان جنون النفس سمد وراحة
وان عشاء الحبيب ذاك التذكر

فانسلك حتى لست أدري أعائش
 علي الأرض تسمى أم دفين معفر
 فان يبلغ الحب الجنون فلا تلم
 اما كل مجنون علي الهجر يعثر
 وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان في وسعه أن يطلب
 الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكره
 احدا منهم خاطر ملح أو وهم جائم ولو انه سال طبيبه لعرف منه
 ان بعض المجانين يعذبون انفسهم بما يتخيلون وانهم كثيرا ما يخلقون
 لانفسهم جحيما من الاوهام يصلونها ،على انا لا ندرى من اين جاءه
 ولماذا ظن ان حبيبه سيلومه ويماتبه علي الجنون اذا بلغ الحب ذاك
 ولكنه معذور علي هذه السفسة علي كل حال والناس كذلك
 معذرون اذا لم يقرءوا نظمهم .

وقال من قصيدة « صنم الملاحه » :

بلغ الغرام الي الجنون فلا عتاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وادركه مس الجنون واظلمت عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغك » :

بالله ما تفعل لو بلغوك انى عرتنى جنة من هواء

وكيف لا يذهب لبي والهوى اذا مضت لى اشهر لا اراك

ومن قصيدة « انا مجنون بحبك » :

انا مجنون بحبك فازل شقة صبك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنون خابل يزدرى الرء له وقع التهم

انما الحب جنون وجوى ورجاء واجتسرام وندم

وقد ترقى في هذا المعنى من القول بانه هو مجنون الى نسبة

الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدمر أيضا . قال من
قصيدة « جنون الحياة » :

لا ترع فالدهر مجنون كل حى فيه مغبون
جن من حول ومقدرة وكذا ذو الحول مجنون
فتضاحك ثم قل أبدا ان هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين كل حى فيه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحسن » :

وكنت أعد الحسن فيك فطانة وان جنونى فى هواك صواب

ومن قصيدة « وحى الشعر » :

كجنون النعيم والبؤس فيهم وهى تبدو لغيرهم كذكاء
وفسر البيت بقوله « أى عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن
من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فانا أشهد الله والناس
انى لا أحس هذا الجنون . ولكنى أحسبه سينكر على الشاعرية
لهذا على الأقل . وقال من قصيدة « مشتري الأحلام » :

لو يستحيل المسحيل على الورى

وأنال من أحلامه ما اطلب

لجننت جنسة قادر متحكم

يرضى على هذا الاتام ويفض

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من

قصيدة صوت النذير :

ام ضحكة الرجل المجنون من حزن

لشد ما نال منك البؤس يا رجل

حتام تنكر حقاً غير مشتبه

لا يكره الحق الا من به دخل

وهذا تقييد مجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بفضه اياه
راجعا الى اى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وان بقلبي من جفائك جنسة
فان رام يوما قتلكم ما تائما
فاسقى جنونى من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

فيظهر ان حبيبه عرف ذلك معه وادرك ان جنونه قد يدفعه الى
الاجرام فتحرى البعد عنه فما اشقاه ! جنونه يغرى حبيبه بالهجر
والهجر يزيد فى جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة والى اى حال
ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه
لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما فى الاجزاء الاخرى . ولم
نتقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان
هناك ابياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

امشى (احدث نفسى) عن محاسنكم
حتى يخال حديثى لفو نشوان
نشوان ليس له عقل فيسكته
الحب خمرى وليس الخمر من شانى
فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقوله
وهو ادمى :

واهتف طول الليل باسمك جاهدا
وما جس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا في الهتاف ويعترف بأن هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب ورشد الناس) عن انفسهم

ضاع منهم تحت أشلاء الرمم

... الخ الخ

وليس الأمر بمقصود على جولان هذا الخاطر في نفسه وملازمته إياه أبدا وعلى الصباح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب في الطريق كالسكارى والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وأن الحياة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنونا مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

في كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كانما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا ان الأمر كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم ان الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الأمر بمقصود على ذلك فان شكرى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو - تساهلا في التعبير - مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا أنه يسمع اصواتا أو يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما حسب درجة الحالة فإذا أصاب العين رأت ما لا وجود له في الاذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الاصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس في القوى المفكرة وأن كان لا شك مع ذلك في أنه اضطراب محلى في المخ اذا اتسمت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب بعض حالات الجنون « هذيان الاذن » أى اعتقاد المصاب أنه سمع أصواتا أو أن ارواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب في برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسير في الطرقات وأشباح الادميين والحيوان أيضا وكان يسمع ارواحا

تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأل بمضها عن بعض وقد عولج
من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد
الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكرى - أعاده الله من شر ذلك - في الصفحة الثانية
والخمسین من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

او كنود البحر فضيا له وتر في القلب فضى النغم

« ما رايت القمر الا احسست كان نواقيس تطن في اذنى . وان
الد الانغام رنة الفضة المجوثة » اهـ

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى انه فى
كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى اذنه صوت نواقيس فضية
ولنا ان نلاحظ امورا :

اولها - ان البيت لم يكن يستلغى هذا القول منه لان معناه
مفهوم بدونه

وثانيها - ان ما (يطن) فى اذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس
له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض - بتقريره ان الد الانغام
رنة الفضة المجوفة خصوصا وان رنتها « ليست » الد « الانغام »
وان كانت « اخلص » الاصوات واصفاها والفرق كبير بين صفاء
الصوت وبين حلاوة النغم . نعم ان الصفاء من عوامل الحلاوة فى
النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار - مع التسامح فى عد الرنة
نغمة - لا يمكن ان يعد « الد » الانغام .

وثالثها - انه كلما رأى « ضوء القمر » طن فى اذنه هذا الصوت
ذو الرنين ويعرف الخاصة واهل الاطلاع والملاحظة ان « ضوء
القمر » مقرون فى اذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما
يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان

صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء في الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب في طائفة من الاعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول في هذا الباب ولكننا قد اطلنا وان كان التحليل ممثعا مغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزئ بملاحظة أخرى وهى أن لشكرى كتابين غير دواوينه أحدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا أنه وصفه بأنه « أحلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهى كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتدى فيها كاتبها روسيا في رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى أن حلاقا ذبح زبونا له لأن رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهى فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا أن نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تأليف أو نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولأن جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانيا ولم تكن أمامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها - وهى كثرة مروعة - يرجع الى أين ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليك أن يحمده الناس منه فلا يحاول أن يغالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الا بكم الا وهى قادرة على الزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

الجزء الثاني

أدب الضعف

الادعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالذباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على اهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون العتئين في غير هذا الفطر ولا يعدو جمهور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ احدنا العناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخدمه او ربة بيته ازيلي هذا واتى عليه بالكنسة ثم لا يقولها حتى ينسى امره ويذهل عن خبره . اما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه وتقيضه . يظهر الدعي فيستولى على الميدان ويخسر الناس له سجدا الى الاذقان ويباهون به الأمم والازمان فان سالتهم في ذلك وعلته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر أحالوا وتهربوا وفتحوا أبوابا من التعسف لا تستند الى أصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفند وجروا في أوهامهم الى آخر الأمد كأنما التوق الى أن تقر الأمور قرارها وتأخذ الأشياء أقدارها شيء ليس في سوس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذي تتأني مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الآراء منه فان الداء عياء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون أن يصفوا لما يقال لهم ولا أن

يفتحوا للذى تبين أعينهم أو يأخذوا لأنفسهم بالتى هى أملاً لا يديهم
 وأعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل امر فى عمياء قصاراهم أن
 يكرروا الفاظاً لا يعرفون لشيء منها تفسيراً ويرددوا ضروب كلام
 أن سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبيناً . وما لهؤلاء نكتب ولا من
 أجلهم نتكلف أن نكوى عرق الباطل ونخرس السنة الكلب والتدجيل
 وننقض بناء المنكرات والشناعات التى أقامها نفر من الادعياء نشأوا
 فى غفلة الزمن فان من المستحيل أن نرجع بهم الى سن التفكير
 والبحث والتقصى وحس الاستطلاع ولكننا نكتب ونشرح وننصب
 الميزان لمن يحس انه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجهلها
 فيها لا ليغمضهما دونها وأوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين
 النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك
 حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يجب أن يستسقى الا من
 المصب أو يأخذ الا من المعدن مؤثرة الفينة والهزيمة والفشل على
 احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن
 طباعها وقلب الفطر الى اعدائها - لهؤلاء الذين هم معقد الامل
 ومناطق الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها
 ونعدها ونرفع لميوتهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى
 تكون أضوا لها واكشف عنها صابرين على طول تأملهم مفتبطين بعدم
 قناعتهم الا بالافتناع . اذ ما خير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة
 مستبين ؟ !

وليس فى مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن
 الجرى مع الاوهام والذهاب الى اشنع الشناعات واسوأ المنكرات
 ما عرض لهم فى الأدب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ
 وجمل يتبع بعضها بعضاً من غير أن يتوخى فى تنسيقها معنى فقد
 صنع ما يدعى به كاتباً وشاعراً ومؤلفاً يقض الزمان بمثله ويعبى
 الامم مكان نده . وقساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى
 تنبيه أو أن يتجشم احد منا اقامة الحججة عليه والتدليل مع التبسط

فى الايضاح وتحرى البساطة فى سوق المبادئ وتفصيل الاصول
وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا راونا ندلى
بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار
دستورا معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبدائة غنيان ؟ افلا
يعلمون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهى تحسبها أدوات
الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب
وعمى العيون واعوجاج الاذهان .

ولماذا لا يرون من أعجب العجب ذلك الذى عليه الادعياء
المقلدون فى امر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد فى
الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى
الذى تريبه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين اذا
اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التى تتمخض عنها الطبائع
المسوخة والاذهان المنتكسة ؟ ان الجيد فى لغة جيد فى سواها
والادب شيء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لأن مرده الى اصول
الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك
الفث غث فى كل لغة فى أى قالب صببته وسببته وبأى لسان
نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يقربنا بالاسترسال ووجدنا من
الاقبال ما قوى الامال فى صلاح الحال وهاكم صنما آخر من
معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطى

عنى السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الاول من نظرائه وذيلها بتوقيع من لا يبالي دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنيننا هذا الامر الا من حيث دلالة على طريقة السيد فى الاحتيل على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وامثاله على تأثير الانقلاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما ارادوا ان يزقوا الى الناس مرائس افكارهم او يشيعوا الى قبور صدورهم اموات خيالهم . واذا كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد ان يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لاثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنيننا من السيد ما خطه يراعه الرشيق واملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق ان يكون على ظاهر الامر مقدما على سواه وحريا بان يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر روياته وقصصه فى اثر هذا وذاك على اننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخيرة قبل الاوان توفية للحقوق وبياننا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقارئ على مبلغ سعة المجال .



السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة واربعين عاما من ابوين كريمين كرما يشته ان اولهما - ولا ندرى ايهما يعنى ولكنه احدهما على كل

حال - ينتهى تسبه الى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة
ومنافس آدم بكثره النسل « تفاقم » اللرية . وثانيهما الى اسرة
جوريجى التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤئل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حفظ النقد ان يزيد
على هذا في بيان نسبه الا اشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا
تحتمل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد في منفوط من مدن الوجه
القبلى في جنوب مصر » وأن أسرته هناك « مشهورة بالشرف
والثقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته
تهدى الى معرفة ما هنالك ولكننا نجسبه خشى أن يضل القارىء
ويختلط عليه الأمر فيتوهمه مقدوفا به الينا من المرخ - والحق
أن له العذر في خوفه هذا اذ ليس في كتابته ما يدل على أنه مثل
ابناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها واداء
لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته
فنقول وليته. اذ عنى بهذه التفاصيل البديهة كان قد ساق الينا
ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير اثر العوامل الوراثية في
تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بأنها « انقباض عن الناس ووحشة
يحسبها الرأى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزاة والوقار
والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة
من لا تعجبه اخلاقه ولا تجمل في نظره اطواره . وعفة حتى عن مديده
الى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم
يظنه الظان مجزا وضعفا فاذا غضب وقليل ما يفعل فهو الليث قوة
وشجاعة وايمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب
باب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان في أسبوع واحد
فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمة ثم
ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الى اصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها
كانما المرزوء سواه وليس أحقر في نظره من مدح المادحين ولا أحقر
في نفسه من انتقاد المتقدين عليه وليس ابغض اليه من الكذب

وكثيرا ما كنت اسمعه (!) يقول « لا طلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل او يعجب برأى البليد الى آخر ما لا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .
ولكننا بشنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الادب الجم الذى جعله - كما يقول - الكاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشئونه سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الاولى او التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها اسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية من عواريه .

وليس فى أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببذعة ممن هو كالسيد الشريف المسبب لا يحدث الا عن نفسه ولا يصدر فيما يكتب عن سوى يومه وأمه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن أنفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجهم ووصف آبائهم . وما للقراء والاجدادك الذين لم تزودنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا فى تاريخ حياته يقع فى اكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر أنه أورد اسم أبيه حتى ولا فى سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقد جمل وكده أن يشرح لقارئه أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو ما يعنى قراء التراجم . أما الاجداد والاباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا يستطيع أن يعرف عنهم اكثر من الأسماء فخير له وللناس أن يسدل عليهم أستار الخفاء حتى لا يجمع الى الجهل أو العجز تقيصة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على أنه ان فاتنا هذا الذى كنا نحب ان لا تخلو منه الترجمة ولم نعتض منه الا ما هو منشوء ثقيل على النفس فان فيما كتب السيد الشريف الجليل العربى التركى الحسينى الجورجى

المنفلوطى الكفاية فانه اعزه الله لم يألنا كشفاً عن آرائه وأخلاقه
وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهو اجس خاطره
ولم يضمن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل
ويشرب ويلهو ويلعب ولأى شئ يطرب ومم يقضب وماذا يمقت
وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه
فى غنى عما يبدىء فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يشبتها
لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

وبالها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه
بالصدق فيما نحلها من الشيم ! فهل تعرف أيها القارئ من أى
ضروب الشجاعة هذه فان لها لأنواعاً وضروباً ؟ ليست شجاعة
الايمان ولا شجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا
شجاعة الطيش وإنما هى شجاعة .. الطعام !! نعم والموائد المدودة
والاخونة المنصوبة . وأنت أيها القارئ اذ تنكر هذا القول علينا
وتمط شفتيك وتزوى ما به عينيك لتدل بذلك على أفحش الجهل
وأفصح بأسرار فعل الطعام . ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى
أن يخشى السيد الشريف الخسيس بالسيب بعد أن يجمع حول
مائدته الأسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض
الوريات القدرة ويملا لهم بطونهم كنت حقيقاً أن تفهم ما نريد
من شجاعة الطعام . اترك لم تسمع بالمثل العامى القائل « اطعم
الفم تستحق العين » ؟ وماذا صنع السيد أكثر من الجرى على
السنن العامية فى كل شئ ؟ فى كتابته وفى معاشرته وفى اتقائه اللسن
— وهذا هو السر — فاعلمه — فى أنك لا تسمع به فى هذه الوريات
ولا تراها تلهج به مادحة ولا قاذحة .

ومن ظريف ما نرويه فى هذا المقام أن السيد سمع بعزمنا على
اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وأرسل يلح علينا فى
« تشريفه » فلم ينقذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف القدر
ونكران جميل مائدته الا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض
الاحيان ؟

الحلاوة والنعومة والأنوثة:

وبعد فماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق ان يعد من أجله كاتب و أدبى الا اذا كان الأدب كله عبثا فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيخونا الماتقين يقول : « ان فى أسلوبه حلاوة » ولو أنه قال « نعومة » لكان أقرب الى الصواب ولو قال « أنوثة » لأصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجى فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيرا . قال مهباز :

فيارب قلد دمي مقتلى بما نظرت واعف عن قاتلى
هنيئا لحبك - ذات الوشاح . دم ظل فيه بلا عاقل
وحبى ذكرك حتى لثمت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة - كلام مصقول لين الانحدار تستطيع ان تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نشرته وتأملت متاحشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر ان وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما فى الامر ان صاحبه اراد القول فى هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد أعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الإفراط فى الرقة يكسب الجمال ويفنى عن الاحساس به فقلب كل شئ وحمل عينه

ذنب النظر الى الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا في
اللين وذهابا الى اقصى المدى في الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا
دم مطلول بغير عاقل وانما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول انه
لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو
من سخافات التطرى ويكفى لادراك مبلغ السخافة ان تتصور مثل
هذا المنظر حادثا واقعا . وامثال هذا كثير في غزل المقلدين والعابثين
لانهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا في سبيله
الرجولة والعقل . ومهيار بعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض
وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين
مذهب العرب في الشعر ومذهب الآريين - أو الفرس فقد كانوا
لا يعرفون الا عربا وعجماء . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح اذا غشى تجار الاشعار ما جلبوا

يشكرها الفرس في مديحك للمعنى وترضى لسانها العرب

فكانه لم يشب عنه عناية العرب باللفظ واكبارهم شبانه وذهاب
فيهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى في حلاوته وعلوته
كقوله :

اذكرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نوحا

وقوله :

آه على الرقة في خدودها او انها تسرى الى اكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع في هذا فما ظنك بالمتأخرين
والعابثين الذين افتنوا في العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل
للانسان انهم كانوا يتبارون ليروا ايهم اعظم تطبيقا للعقل واثباتا
بالمستحيل ونسيانا لاحكام الحياة . اما الحلاوة فتجدها في مثل
قول الشريف الرضى :

اتت النعيم لقلبي والعذاب له فما امرك في قلبي واحلاله

وقوله من القصيدة عينها :

عندى رسائل شوق لست أذكرها

لولا الرقيب لقد بلفتها فاك

وليس يمنعك أن تتذوقها من البيت الأول ذكر المראה فانها هنا اخف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغريب أجدى وأنفع في تبين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم أحد أننا قوم افتننا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا أن يظن بنا الاعلان عن النفس وان كان لا غضاضة في ذلك ما دمنا ندمو الى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة الى ما ترك من التنوع في الاطراد والى احساس الشاعر بالذادة والحسن احساسا هو مزيج من الاعجاب والطلب . خذ البيت الاول مثلا « أنت النعيم » وتأمل اطراد العاطفة في مصراعيه وتوازن قوتها في شطريه وكيف أنه مع هذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدك . وبريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لا أكثر ولا أقل ولو أنه كان قال « أنت النعيم قلبي والجحيم له .. فما أمرك .. الخ » لأحسست التنافر واختلاف القوة في الشطرين ولما استعذبت منه قوله « فما أمرك الخ » بعدا لفظة الجحيم . وتأمل في عقب هذا قول المسكين شكرى يصف جميلا ويبالغ في حسنه :

كانما صافحكم كيما يحبكمو

يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله في صدر البيت - فأتك تحس اذ تنتقل من الشطر الاول الى الثاني كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتاً وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثاني وانظر تحريه الدقة في العبارة عن مقصوده تحريا اكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر

بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون اقوى الالفاظ واشدها
من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما
لم يكن يعجز الشريف عن حشره في البيت لو كان مثلهم فساد ذوق
وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت اكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من
أخف مراتب الحب وأولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة
ومن اشتهاؤه التفتيل اشتهاؤه لا ينبو مع ذلك في زمام الإرادة
فالتناسب تام بين أنواع المعاني والاحساسات المتنوعة التي ضمنها
البيت - من اعجاب واحتشام واشتهاؤه والتشاكل كامل والاستواء
بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبله وسلامة الذوق وحسن
المعنى في الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ الا اللغز ومراعاة ذلك
وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

واذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع
فقارن قصيدة الشريف الرضى التي يقول في مطلعها :

يا ليلة السفح الا عدت ثانية سقى زمانك هطل من الديم
بقصيدة الطفرائي التي احتداه فيها وترسم مواقع اقدامه
وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكننا نجتزئ بذكر البيت من
قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطفرائي مجازاة له . يقول
الشريف :

قبرت منها بلا رقيب ولا حنر
على الذي نام عن ليلى ولم اتم
فياخذ الطفرائي ويخرج صاحبه ان كان لهما وجود :
يا صاحبي اعينساني على كلفى
بمن تناوم عن ليلى ولم اتم
ويقول الشريف يصف ليلته معها :
وامست الريح كالغفري تجاذبنا
على الكشيب فضول الربط واللم

يشى بنا الطيب احسانا وآوة

يفيئنا البرق مجتازا على اضم

فيستطو عليه الطفرائي ويصوغهما في أربعة آيات مرذولة :

بتنا وبات الصبا وهنا يغزلنا وفرشنا الرمل وشته يدالديم
والليل يكتم سرى والصبا كلف بنشر ما كاد تطويه يد الظلم
يانفحة الريح باتت بين ارحلنا بالجزع تسلك بين العنبر واللم
نهبت طيبا واقرت الوشاة بنا يا حبنا انت لو لم تقتدى بهم
ويقول الشريف :

واكنم الصبح عنها وهى غائلة

حتى تكلم عصفور على علم

فيضمه الطفرائي في هذا البيت المتحوس :

وغاب عنا غراب الين ليتنا فتاب عنه عصيفر على علم
ويقول الشريف :

يولع الطل بردنا وقد نسمت رويحة الفجر بين الفصال والسلم
فيمسحه الطفرائي هكذا :

وأذنتنا بقرب الفجر ناشئة باتت تحرش بين الفصال والسلم
ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين في ثوبى هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع الى قدم
فيا بى الا أن يعف عفته ويجيء بهذا البيت المنشور السخيف :

ورق لى قلبه القاسى ومكننى مما أريد فلم آثم ولم ألم
ويقول الشريف في غير هذه القصيدة :

انت النعيم لقلبي والعذاب له فما امرك في قلبي واحلاك
فلا يرى الطفرائي أن يتركه في قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى في الجوى حتى انست به

فهو السرارة يطو طعمها بقمي

فيخلط ويحسب الشريف الى هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادى في الزمان هوى

الا ذكرت هوى ايامنا القدم

والذكرى طبيعية ولكن فساد ذوق القلند الطفرائى يابى له
الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن استجد الحب بعدهم والحب وقف على احبابنا القدم
الغ الخ

وشتان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وأبيات الطفرائى لا يسبقها
المرء الا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج الى جلاء .
ولعل القارئ قد رأى مما أودرنا أن الحلاوة لا تتفق مع العبث
والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها .

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة فى كلام المنفلوطى سواء
فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع
العبارة عنها وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنسومة أقرب الى
الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب الى أدنى
منه وليس أدنى من ذلك الا الأنوثة وهى أخط وأضر ما يصيب الادب
ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسبقونها
ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم اياها أن يشجعوه ويفروء بالكد
فى إبراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف .

قال المنفلوطى فى مقدمة عبراته :

« الاشقياء فى الدنيا كثير ، وليس فى استطاعة بانس مثلى أن
يمحو شيئا من يؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم
هذه العبرات عليهم يجدون فى بكائى عليهم تمزية وسلى . »

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا
القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفًا على المساكين
أمثاله . ولو شاء لقال أن الناس جميعا كذلك أن كان يريد أن يذهب
الى هذا المعنى لأن كل امرئ طالب محروم . ولكن وظيفة المرء فى

الحياة ليست أن يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل في الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهي قائمة على ذلك ولا سبيل إليها بدونه ، بل هي تنتفي إذا امتنع وبطل .

وهذا شيء يعرفه كل أحد ويحسه كل حي . وقد فطن اليه الاقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمي على ذلك واثباته في مظاهره ومن آيات هذه الفطنة - فطنة عميقة مستولية على النفس - أنهم قالوا أن في الوجود قوتين متنازعتين أبدا وقوة الشر التي تغطي بالليل وتجل في الرعد. وتقذف بالصواعق وتبتلى بالجذب والمحل والابواء والارزاء والفناء وما يدخل في ذلك ويتفرع منه ، وقوة الخير التي تسح بالفيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجد بالخصب والحياة الي آخر هذه المعاني وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمر .

ومثل هذا واضح في جميع الأديان وإن تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما أبلّس أن فكرت الا اسم آخر لاهرمان والأرمر لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ في خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفي أوهام العامة التي تعزو الأمراض الى فعل الشياطين وفي خوف الأطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير في دبابجه . ولماذا يفرع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والفساب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ اليس هذا اثرا من الاعتقاد الأول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذي يحسه الأطفال والعامة والذي فطن اليه الاقدمون السذج بفرائرهم وفطرمهم السليمة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذي يحسب أن ليس له من عمل في الدنيا الا البكاء على الاشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجواله في جوف الثرى .

وعسى قائل يقول : ان هذا منه فرط حب للانسانية وهى فضيلة لا يقبلها رذيلة أن صاحبها بالغ وغلا فى الامر لانه انما يفرق فى النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد فى التصوير ليكون أبلغ فى التأثير ويبتناهى فى الدعوى استندناء للغاية القصوى .

هكذا يصنعون اذا ارادوا التفضيل أو الامتداز لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لأن الانتصاف منها لا يتأتى الا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه فى ضوء الاستقراء الحديث .

ما هى اخلاق المنفلوطى ؟ هى بالفاظه - أو ان جادل فيما ارتضى ان يوصف به من الالفاظ - انقباض من الناس ووحشة - عفة حتى من مد يده الى أبويه - كرم فى الخلق طالما كان سببا فى وصول الاذى اليه - حلم يظنه الظان عجزا وضعفا - صمت طويل يحسبه الناظر حيا - ما رؤى يوما من الأيام ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويغير رشد الحليم (١) مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما - وليس احقر فى نظره من المادحين له ولا أصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه - لو أن الناس جميعا اجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته ليس أبغض اليه من الكذب - يحب حتى العتاب المر والتفريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا - يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض - ان كان فى اخلاقه ماخذ ففى هذا الخلق خلق النفرة من

(١) قال لسنج الشاهر النائد الانسان : من لا يفقد عقله امام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده .

الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم - وطنى بتهالك
وجدا فى حب وطنه ويلدى الدمع حزنا عليه . . الخ .

ولا تنسى انه جرىء جراءة معدومة النظر في التقحم على حياء
الناس بهذه النوعت الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية -
فيلانثروبيست - وأن أسرته مشهورة بالتقوى وأن أبناءه يموتون
في غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر
في الاغلب والاعم .

فكيف تصف هذه الاخلاق ايها القارىء ؟ اما أن تكون مصدقها
فننظر في دلالتها او مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رايك .

اخلاق نادرة ؟ نعم ليس اندر منها مجتمعة وان انفقت للناس
متفرقة ! ولكن الامر اكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هاك دلالة
هذه الاخلاق الرائعة النادرة في نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى في الاغلب من اعراض الحالة التشنجية وكان
الغرور وكثير من الخصائص البسيطة أو المركبة توجد في حالة غير
عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من المدهش
أن يكون البخل من أعضاء ما يسميه (فيرى) اسرة الأمراض
العصبية . وحب الانسانية - فيلانثروبي - نفسه مما يجرى هذا
المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا في بيته وكان له
ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية أيضا وشرح هذه الحقائق
فيما أسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك أن بعض مراكز المخ -
واحدا أو أكثر - تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات أو الاجابة عليها
فتسود في حيز الادراك طوائف معينة من الآراء أو تصير الغلبة
لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم - كما يقول المثل
- لا يصغون الى داعى العقل ولا يحسون الا أنفسهم ومصالحهم .
وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات ان يخرجوا -

بغير مبرر معقول - عن كل متعهم وكل ما ملكت أيمانهم بفائدة
جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالمعمودين أو
المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية
تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبي وعلى العكس
من ذلك ترى الوفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب
الرأى .

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كأنما كتبها
صاحبها لما نحن فى صددده وإيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ ان تؤمن
بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال القريبة فيلزمه
حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى أعصابهم
أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وأن ما به ليس إشارا وحبا للإنسانية
متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها فى الكتابة
وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم
واستصغار لأحلامهم واستهانة بعقولهم ؟
لسنا ننشبت بأحد الحكمين فايختر القارئ لهذا الكاتب
أخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد
واحدة .

« الاشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يحو
شيئا من يؤسهم وشقائهم » .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما أحلكها وأحاساس بالعجز المطلق
والقصور التا . وما أبعد هذا عن الكتابة الطبيعية المعقولة التى
تفشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى
حياته أو فى علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتى لا تمنع أن
يكون الإنسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الأمور
صنادق الوزن لأقدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلاً من يحتسب
طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأنس الرشد من سماته أو من
يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو ضعة قومية فى أبيه أو من

يعنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء
اليائسة التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى عجرة ودار
أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم - أى تحليل لها من الأحوال التى
تكتنفه هو أو سواه ؟ وإى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء
والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشل
ولا يخرج الأمر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كان
يكون مكسورا أو أن تكون انبويته مسدودة أو أن تكون أسنانه بالية
وأما أن يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه
أو أن يكون شئ فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون
الصدأ عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن
هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل
أو أن تدبره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب
فى هذه المرة راجعا الى القفل أو المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .
‘ أهبنى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو أحد قرضين :
أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيء فإذا كان احساسى مناسباً
لدرجة الإساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن
الأمر جاوز المعقول وأن الغضب هاجه ما ليس فيه إساءة وهو
الفرض الآخر فنعود الى مثال المفتاح والقفل ونقول اما أن تكون
الظواهر الخداعة أو الانباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد
الى الإساءة وتعمد الإيذاء فيثير فى نفسى ما يحيط بى مثل ما يثيره
الإيذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعا
الى الوسط والعيب عيب القفل - أو يكون العمل فى ذاته غير مقصود
به الا الخير كأن يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت
فى يومك من النصب أو لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك وبلغ
غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف - أى لا يلائمها وفى هذه
الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الى

علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يهيج فاذا أصبحت في اليوم التالي وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهذا ثأرك وبدالك تهورك فقد أعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك في الصباح كما كان في المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة او الملاءمة مضطربة .

وهذان المثالان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاع ذلك راجعا الى علة عضوية او الى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاءة او هو يجهلها او لا يعرفها معرفتها وفي كلتا هاتين الحالتين يكون العيب في القفل او المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الاحوال الا ما يستطيع ان يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الواجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا ان يلائم بين نفسه وبينها فان الفشل في هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية او عيب في هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه ابدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب في السلوك والاضطراب في الإدراك ويدخل في هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهى أشياء على اوضح ما تكون في قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى .

العبرات « قصة البستم »

وتعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بداناه من الكلام على عبراته فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن امثلة الضعفاء الداهيين مذهب التصنع والانراط في الرقة والانونة والباقي موضوع وهو في كليهما ملفق مستحيل التلفيقات - حتى فيما هو مترجم منها يابى له ذهنه المنتكس الا ان يغير ويبدل ببديلا كبيرا الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته في كل قصة تقريبا بينما هو جالس في مكتبه الذي كانا صار ملتقى كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة اثيرة اذا به يسمع انينا او حنينا او صوتا خافتا او توجعا او زفيرا او نهيقا او شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شامت له تلفيقات اوهامه ومنكرات احلامه - من العمر ملقى يتوجع على سرير او حصر فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه امره ويروي له خبره ويكشف له عن مظاهر اتونته ثم يموت الفتى - وهو ما لا بد منه في كل حكايات المغلوطين فما اعظم شؤمه على ابطاله - فيفسله ويلفه في الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمة من دمعه التي كانها لها « زر » في تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتتحدر وتسيل وان كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا في اسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحانوتي الندابة وللادب الذى هو حياة الأمم
وباعت القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقها وحافرها الى اجل
المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع ان يتعظ بمصير ابطاله المخشين
- ان جاز الجمع بين النعتين - ويموتهم فى شرح الشباب وميعة العمر
وكان فى وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض
نفوسهم ولكن لكل كاتب قراء على شاكلته منسوجين على منواله
وان اخوف ما نخاف على هذه الامة ان تجد هذه الجرائم ترى
صالحا فى نفوسها فى وقت هى احوج ما تكون فيه الى من يبلر فيها
بدور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الالماني رواية « احزان فرتر » وهو فى التاسعة
عشرة من عمره اى قبل ان ينضج ويستكمل الرجولة فراجت
واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع
فى كل زاوية فى العالم الغربى ونقلت الى جميع اللغات الحية ولكن
واضعها الذى كان حقيقا ان يزهى بهذا النجاح وان يفتتن بما وفقت
اليه باكورة اعمال من الذبوع واستغاضة الذكر وان يغريه ذلك
بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة - ظل الى ان
مات لا يندم على شيء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من
عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع ان يجمع كل نسخها
من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟؟ لان فرتر
بطلها انتحر من اجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة اجل من
ان يقطع المرء جبلها لخيبة امل كائنا ما كان او ان شئت فقل هى
اهون من ان يكبر المرء امر سعودها ونحوسها الى هذا الحد . وان
مما يصم الرجولة ولا شك ان لا يكون صحيح الادراك للامور وان
لا يستطيع ان يلبس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين
الوسط .

فإن تخنت العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقدر واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في الدنيا اشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس طالهم ولا نعلمهم الى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عائر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمتلأ دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور أن أفلح ومعدور أن أخفق

جيته - تلك الصخرة القائمة في لجج الحياة تنأطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهي وطيدة لا تلين ولا تساقط. على الصدمات والأحوال - هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذي قرت عنده ثورة « كارليل » الهائج في ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يدوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا ان يخضع للجامة ويستفيد لعنائه والا ان يخرج عن طبيعته - ان صح هذا التعبير - وينسى جموحه مع المعاني وركضه في حلبة متوعدة من الاداء فجاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق المتحدر في سهل دمث من الأرض .

ولعمري ما أبعد البون بين أدب تعليم الحياة المتدفقة وصحة الادراك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التي لا تعرف لها مثيلا في كل عصور الأدب التي مرت بالأمم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التي صدر بها عبراته وموضوعها أن قتي في العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه وأكرمه وأحسن اليه إحسانه الى ابنته التي كانت في مثل عمر الفتى فشبا عشرينى صفاء وخذنى مودة ووفاء ، ثم ذهب

العم الى جوار ربه بعد أن أوصى زوجته أن تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم - اما كما كان هو له أيا ولكن الزوجة لم تلبث أن تنكرت للفتى فزعمت أنها عزمت أن تزوج ابنتها ترى أن فى بقائها بجانبها ما يريبها عند خطيبها وأنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وأمرته أن يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الأمر وأسودت الدنيا فى عينيه لأنه يحب الفتاة حبا لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها ، بل ولا هو نفسه الا فى هذه الساعة . فأسل من البيت ليلا وأكر أن يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى . ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة أشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى أخرى ، ثم شعر بسكون فعاد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من اثر لذلك العهد القديم الا نروا تعاود قلبه من حين الى حين . ثم ان خادمته فى بيت عمه اهتمت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه ان يأتى ليودعها قبل موتها ، ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفننه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع إليها القارىء الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شيء من الآفات التى تقع بالمرء من ملابس الحياة على الوجه الصحيح . فاذا كان الأمر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسي أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لان الظروف المحيطة بالفتى والأحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادى السليم عن مكافحته ولكى يقتنع القارىء بما نذهب إليه نجاوؤ الإجمال الى التفصيل ، ارادت امرأة عمه أن تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها

كل أم ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لأنه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصادق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا أعلم هل كان ما كت أضمره لابنة عمى فى نفسى ودا وإخاء أو حب وغراما ، ولكنى أعلم أنه ان كان حبا كان فقد بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يوما اننى أحبها لأنى كنت أضن بها وهى ابنة عمى ورفيقة صباى أن أكون أول فاتح لهذا الجرح الأليم فى قلبها ، ولا قدرت فى نفسى يوما من الأيام أن أصل أسباب حياتى بأسباب حياتها - ولا حاولت فى ساعة من الساعات أن أتسقط منها ما يطمع فى مثله المحبوب ولا فكرت يوما أن أستشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها لا علم أى المنزلتين أنزلها من قلبها منزلة الأخ فاقنع منها بذلك أو منزلة الحبيب فاستعين بارادتها على إرادة أبويها » .

فما ذنب امرأة عمه إذا كان قد شاء أن لا يتكلم أو يقدر أو يتسقط أو يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقول ؟ وهو يعلم أن لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان لها شأن آخر معه ، ولا يعقل أن يحسب المرء أن الناس أعرف منه بخبيثة نفسه .

أذن فليس فى رغبة امرأة عمه أن تزوج ابنتها شئ يستدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرذم والانسلال تحت الدجى طلبها إليه أن يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه على أن تقوم له بنفقائه فيه حرصا على الفتاة أن يرببها شئ من وجوده الى جانبها عند خطيبها . فأنه موقف معقول واحساس طبيعى . ولا شك أن فى هذا الطلب غضاظة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقا أن يجعله يسفها . فلماذا أنسل وآثر الاستشراء والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد أن سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه أن مات ! اليس الواضح البين أنه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الأحوال والظروف عجزا ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس في شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله
بالغاية منه احساسا واضحا ويدركه اتم ادراك ، والذي لا يعتا
يتطلب التعارف الجسماني الكفيل بحفظ النوع . لانهذا المسكين الذي
لا يدري أهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته أم حب الرجل للمرأة .
ولا يقدر في نفسه أن يصل اسباب حياته باسباب حياتها ولا يحاول
أن يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام
لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم
ولا يروى من تعلموا من هذه القصص أن يعدوا الهوى العذرى الذي
لا وجود له في هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه للحياة - واللين
الدائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس - والانقياد للمرأة
كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وإيماءاتها وحركات
حاجبيها وشفتيها ويدبها ورجليها من علامات الرجولة وآيات
الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية
والزفرات والاناث والدموع وتقليب الأكف والذهول والنحول
والاصفرار والاطراق ونكت الأرض والكلام الذي لا يقوله ولا يفهمه
هاقل والنظرات التاردة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل
ورعى النجوم وضم المخادع ومعاينة السرير وتقبيل أطراف الأصابع
للأصباح والخيالات وتحبيل الرياح أنواع السلامة والتحيات
الطيبات المباركات ...

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وإن كان الحقيقة لانهم لا يطلعون على
الحياة الا من منظار المنكرات التي تصفها لهم هذه الروايات
ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال اشخاصها ولا غرابة
في ذلك فان من لا تؤهله تجاربه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائي
لا يسهه الا أن يسلم بصدقه ويستمد رايه في الحياة من كتابته
ويتخذ اشخاصه قدوة تحتذى وتقلد . وهي نتيجة يعلمها من له
اقل المام بعلم النفس وتأثير الإيحاء لا سيما في الضعفاء والشبان
والنساء ومرضى الأعصاب .

واذكر على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة انى
اعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه
وهواه فى صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى ان
يكون على رأس فرقة من « البوليس » السرى يطارد المجرمين . ذلك
لان هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب
فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان واخصها الحب
بتنبئها مركز التوليد قبل الاوان وقبل ان يكون الباعث على الحب
هو النضوج الجنسى فى الفرد .

أسلوب المنفلوطى

أما أسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفى سواها فأسلوب رجل لا يبالى من أى مدخل دخل على القارئ ما دام يقدّر أن سيصل منه إليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقعّمه عليه وإذا كان يعرف من نفسه التلغيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقتناع والتأثير بضروب من التأكيد والفلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكلب والتزوير لما وقع فى وهمه من أنه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدهما أن يلقى ساذجا ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وإن العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس إلى آخره دون توقف واعتراض . ومع أن قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فإن فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحد لا يكون الأسلوب أسلس وأطبع بدونه . لكنه ذهب إلى المبالغة فى كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الإفحاش فى التأكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارئ فى أى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فإن الألفاظ كلها سواء من حيث هى الفاظ ، وإنما قيمته ونصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا . . أجل جرسه

وهده ، والا لكان ينبغي أن لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلا بد أن يكون وراءها شيء ، وأن المرء يرتب المعاني أولا في نفسه ثم يحدو على ترتيبها الالفاظ وأن كل زيادة في اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الراى أن راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده الزية والتأثير . وينسى المسكين أن كان كلمة يستطيع القارئ أن يسقطها بدون خسارة في المعنى أو تعويق لتصدر الاحساسات أو افقار لفناها - كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فان العالم اغنى في باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه وليس شيء أحق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الاداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطى لأن اللغة عنده ليست الا زينة يعرضها وحلى يخيل بها لا أداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن أين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى في صدره ولا فكرة في ذهنه .

وهذه امثلة للمفعول المطلق في كناية المنفلوطى وكلها لا ضرورة اليها ولا داعى الا من الرغبة في تأكيد الغلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التفتيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الأخرى .

١ - وقلت لأبد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريبة معذبة تدوب بين أضلاعه (ذوبا) .

٢ - فتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

- ٣ - ثم لم أزل أراه أو منظوريا على نفسه في فرائشه ين
(أنين) الوالهة التكلى .
- ٤ - واطمنى لو استطعت أن اداخله (مداخلة) الصديق
الصديقة .
- ٥ - وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجذ .
- ٦ - وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديدا .
- ٧ - فشعرت برأسه يلتهب (التهابا) .
- ٨ - وإذا قميص فضاخ من الجلد يموج فيه يذنه (موجا) -
يصف نحوه .
- ٩ - فاستفاق قليلا ونظر الى (نظرة) عذبة .
- ١٠ - فتشهد طويلا ونظر الى (نظرة) دامعة .
- ١١ - أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك .
- ١٢ - فأترلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبل .
- ١٣ - ١٥ - فعنى بى (عنايته) بها وأرسلنا الى المدرسة فى يوم
واحد فأنست بها (أنس) الأخ باخته وأحببتها (حبا)
شديدا .
- ١٦ - ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب
المنون .
- ١٧ - فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كأسها .
- ١٨ - ثم أنسلت من المنزل (انسلا) من حيث لا يشعر أحد .
- ١٩ - وهكذا فارقت المنزل ... (فراق) آدم جنته .
- ٢٠ - فرحلت (رحلة) طويلة .
- ٢١ - هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم
له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء - يعنى غرقت -
(دورة) سقطت على أثرها فى مكانى .

- ٢٢ - فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .
 ٢٣ - وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت
 ان كبده قد ارفضت .
 ٢٤ - وان الضربة التى اصابته قد سحقته (سحقاً) .
 ٢٥ - ٢٦ - اشعر براسى يحترق (احترافاً) وبقلبى يدوب
 (ذوبا) .
 ٢٧ - تم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى الى اى رقم
 يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم انفسنا هذا
 الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل
 الشبان واحد فى كل كتابه ام هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة
 وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب
 جميعا !

ولعل القارئ لاحظ فيما أوردنا من الأمثلة كثرة النعوت
 والاحوال كقوله « خرجت منه - يعنى المنزل - شريدا طريدا حائرا
 ملتاغا » وقوله : « تركنى فقيرا معدما لا املك من متاع الدنيا شيئا »
 وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس « قريحة معذبة »
 وقد يعلم القارئ او لا يعلم ان هذا الاسراف فى النعوت من دلائل
 الضعف وفقر الذهن لان الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى
 مرجوه ان يوافق واحد منها محله وان يقع فى مكانه ولكن المطبوع
 يعرف ماذا يأخذ وما يلقي وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات
 من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لا يستطيع ان يتحرى الدقة
 اذ كان لا يدري اى الرموز اللفظية اكفل بالعبرة النابعة عن المعنى
 المراد فهو من اجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الالفاظ بلا
 حساب مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ فى
 ذاكرته وبرنين الاصداء المتقطعة للأصوات المألوفة . وهناك امر آخر

وهو أن الترادف في اللغة من الأكاذيب الشائعة اذ ليس ثم في الحقيقة لفظان يؤديان معنى واحداً على وجه الضبط . وما من مترادفين يزعم الزاعمون أنهما سواء في المدلول إلا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر ، فإذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعاني متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعني على التحقيق وإي مدلولاتها المتفاوتة يقصد اليه ويريد منها في فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله في التصوير والرسم فكما أن المعول فيهما ليس على كثرة الألوان بل على أصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبارة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ إبانيتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعا السخفاء وأشياهم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظة ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأي حماسة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلاً يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وإن كان على هذا لا يحتاج إلا إلى أيسر فكرة وأدنى نظرة وهو أن اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء في ذاته ولا معنى له في نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الألفاظ بعضها إلى بعض كاللون في ذاته لا يفيدك صورة ولا يغطيك شيئاً إلا بعد أن يتلف مع سواه ويجرى كل إلى أخيه مجراه وليس لغير ذلك مساع في العقل أو مجاز إلى الفكر وقيام في النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المرجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفي جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، والا فإن أحداً لا يعجزه أن يعتمد إلى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وإنما التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة

فلا تجعل بالك الى الالفاظ اذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن اجعله الى طريقة تأليفه الكلام فان رأيت يدور منها في حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر اليها فاعلم انه ضيق المضطرب محدود المجال ، ضئيل الحال ، والى بعد ذلك الفاظه من اى حالق شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب :
« فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الارض أحد اذل منى ولا اشقى » - « ومارئى مثل يومها يوم كان اكبر باكية وباكيا » او هذا التأليف « فما هو ان مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوها غير الوجوه » - « وما هي الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن فائما نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المجال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر - والالفاظ كالحجارة في محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من امرها في راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتشيت في انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخث في كتابته وملق مستحيل التلفيقات ، وانه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة في العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتاكيد في صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة أى في الاسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها في تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درساً فيما يفيد صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة أفق الفكر . . وانا لنعلم انه لن يفيدهم الا الحسرة على ماضاعوا من العمر وجنوا من سوء والخبث في هذه الامة التى نكبت بهم على

قدر سدر أعينهم وضلال أفهامهم ، ولكننا ماقصدنا قط الى امالهم
 هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من
 المنشئ اذا قدحته وري وهدى من له قلب اذا اريته راى .

ونمهد لما نريد تبينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما
 لا يدركون الشيء أو يصدمهم فنقول أن ههنا في ناحية من الطريق
 شرطيا واقفا يرقب الحركة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين
 والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين الى الشر الى أى هو تابع
 له من « الأقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى
 يديه وتقيس النصب الذى ينبغى أن يعاينه الى القدرة اللازمة التى
 لا تواتيه فتعطف عليه فى محتته وترثى له فى وقفته وتصوره وانث
 ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا
 اوامره ونواهيه - هذا وربما ذهبت تعتبره مرة أخرى من الجانب
 المضحك فى هيئته وفى تراخى همته وبطء حركته أو عدم التلاؤم
 والتناسب فى بزمته ووفاء قامته وهخاذه فى مشيته وتثاوبه واستناده
 الى الجدران وذهول نظره أو حواراه مع الباعة وتأتيه الى غايته
 وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جذبته أو تواريه فى الدروب ووراء
 العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك . ثم تصوره
 صورة تركبه فيها بالدعابة فأنت قد تناولت موضوعه من جهتين
 متباينتين اذ كنت قد نظرت الى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت
 فى الأولى جادا وفى الأخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين
 معيرة من اعتبارك اياه ناطقة بالفرض منها فوجهة النظر الى
 الموضوع والطريقة التى تتحراها لفائتك هى ما نسميه اسلوب
 التناول ولا شبهة فى أن المرء ينظر الى الأمور من جهات معينة - من
 ناحية الجد أو الهزل أو المألوفية أو الشلوذ أو الجلال أو الحقارة
 وليس يعنينا من أى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنينا مقدار ما
 فى سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ
 التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لأن

القصصى لا تظهر قدرته فى المواقف الهادئة السلسلة وانما تستبين وتتضح حيث تكون اشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفى المواقف التى تتطلب ادق النظر واشق التمييز وأصح العبارة .

كيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هى الفكرة العامة التى نظر بها فيه ، وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التى استعمالها صادقة وهل السلوك الذى عزاه الى اشخاصه مما هو معهود فى الادميين كما نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خطئه وتخليطه أو اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : انك تضعه فى ميزان لم يصبه لنفسه ولا كان فى باله ولا جرى له هو وأمثاله فى خاطر . وردنا على هذا المحتج ان الأدب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل والاعتداد فيه الا بالصلاحيه للحياة . وهى هى ميزانها أبدا واحد لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فاخرجوا به من هذا الميدان وادهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم الا أن تعدوه كاتباً اديباً فلا مسمح عن قذفه فى هذا الاتون الحامى لنعرف من أى معدن هو . وانتم بعد خلقاء أن ترضوا لصاحبكم ما نرتضى لانفسنا مختارين مرتاحين فاننا نعيش فى عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك محيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ فى حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوائلنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطة زاخر العباب يضطرب بنا منته فى عشى ليالينا المتجاوبة بصيحات التمسك والظلمة الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب فى أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة - أو النظر المخلص الصحيح ان شئت - لا يتفقان وان الفائض على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون اديباً وان الاديب لا يكون معبدا ورائداً وان ما وصل الله من الخصائص .

والفة يجب أن يقطعها الإنسان ويمادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط في هوة الأبد وجاء زمننا الشاذ بعلاقة الطبيعة بنفس الأدمى الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان ، والمرغ وراء السماء سماء وبعد الإباد أبدا ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود الى صاحبكم المنفلوطى - وما أهول هذا الانحدار - فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها لكفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا في غير هذا البادان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكننا وطنا النفس على الجسد ورضناها على السكون الى ما تكلفنا اياه حدانة العهد بالادب الحى .

بحسب المنفلوطى ان تكلف التفصيل في المحسوسات مظنة الاجادة وفاته - وانى له ان يفهم هذا - انه لا يعجز احدا ان يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهل في يده كتاب أم عصا ونائم هو أم جالس؟! وانما محك القدرة في تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا طواهر الأشياء وقشورها وفي رسم الانفعالات والحركات النفسية واغتلاج الخواج الذهنية وماهو بسبيل ذلك .

اما تفصيل المنفلوطى فلا خير فيه بل الخير في اجتنائه وتحاشيه وليذكر القارئ أن هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدعى انه كان شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب - وهو بطل القصة - في البيت المقابل له في الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الاولى بين شيوخ الرواية .

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فأرى أمامى فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا الى مصباح منير في احدى زوايا الغرفة (ينظر في كتاب أو يكتب في دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين

الاستظهار والاعادة وكيف رأى شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟
ولكن هناك ما هو ادهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصباحه وقد اكب بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما لم به من تعب الدرس وآلام السهر قد عبث بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث ان عاد الى نفسه » .

وهى لا تفيد ولا يمكن ان تفيد شيئا سوى انه يريد ان يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارئ ثم هل تدرى انه احس انه موشك ان يقول شيئا مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهمما ضاقتا وحتى لو كان الوقت وقت الظيرة المتقدمة اللطيفة لا يسمح بان يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة او جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخرج منه مما اوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير ان يقول ان الفتى رفع راسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت ايها القارئ هل قنعت ام تزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافي : ذهب المنفلوطى اليه لانه سمع « فى جوف الغرفة انه ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فأممرت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه

موجاً فامرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من اشربة الحمى
فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلاً »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا
محادثته إياك لم تره وبالجسم لو تؤكدت عليه لانهدم فاما القميص
من الجلد يموج فيه البدن فلم تكن نتوقع أن يسمعه أحد الا في
مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا التحول احتاج صاحبكم
المنفلوطى أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب أن انفص على القارئ كتابنا بكثرة ما أورد من
هذه التليفقات المنكرة ولكنى أسأله الصبر على هذه الجملة أيضاً
— دعا المنفلوطى الطبيب فجلس المريض وهمس في أذنه أن العليل
مشرف على الخطر — ولا عجب أن يصير الى هذا المصير الخبيث
بعد أن جرعه المنفلوطى — شراب حماه — ثم دفع اليه المنفلوطى
الأجر وأحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين
الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى أنبثق نور
الفجر » .

والعادة ان الاشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية)
يحددها الطبيب ولكن الظاهر ان طبيب المنفلوطى امره ان يعطيه
الدواء بعد كل ... بكاء !؟

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطى مات
له طفلان في اسبوع واحد « فسكن لهذا الحادث (سكونا) لم
تخالطه زفرة ولم تمازحه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا
عليهما « ؟؟؟ وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى
الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواء .

وبعد ان استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب
المنفلوطى عليه وابلا من الأسئلة وهو يعلم انه في سياق الموت

(فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رانى فقال انت هنا ؟
قلت نعم : أرجو أن تكون أحسن حالا من ذى قبل . قال أرجو أن
أكون كذلك . قلت : هل تأذن لى يا سيدى أن أسألك من أنت وما
مقامك وحدك فى هذا المكان وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت
من أهليه وهل تشكو داء ظاهرا (ياللعلى) أوهما باطنا وهل لك
أن تحدثنى بشأئك وتفضى الى بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه
فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب أن الفتى لم ويصفه ماذا كان يخشى المسكين لو
فعل وهو ميت لا محالة - بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى
انتهى بين يدى هذا الحانوتى بعد أن فرغ من الحديث الذى يملا
أحد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه فى ساعة الموت !
وما أخلق هذا الأدب الميت بأن يروى عن المجتضرين ؟ وما أحق
أهل الفتى أن يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

إبراهيم عبد القادر المازنى

شوقي في الميزان

٢

عرضنا (شوقي) في الميزان لأول مرة فارجح به ارجاجا عنيفا وأيقظه من غفلة كان فيها سادرا وما هو الا ان حط به ثم شال حتى تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسته : « هبوني لست بالشاعر اليس لي فخر آخر اذل به ؟ »

تقول أجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لاربعة أجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره في أوانه - اسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه في أسبوع أو أقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارئ واحد وتوالى الطلب له في المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على إعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الأدب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضي ذوى العقول المتزنة والقطر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقتهم عليه مرضية وراهم فيه جميل . ومنهم اذكىء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايخون بل المهملون . وطائفة أخرى حظها من السماع أكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفوعة

بالدهش اميلَ منها الى المنافرة والمنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطا ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يلمس المعاذير ويدرب لسانه على التفسير ، وفي هؤلاء امل لا يضيع ولا سيما بعد هذه الدهشة وتطامن المفاجأة لان نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة ان ائلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر عند اليأس منه نبذه . واما التدمير فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعنى فريقى القراء - وبالحرى المتحدثين - الذين لم نوجه اليهم خطابا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والفرازة ويفرمون بالشعر كما يفرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة ويفار على صيت شاعره كما يفار على اللعبة التى فتن بها . ومن أظرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التى اقام لها الأزهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة فظن - صان الله لشوقى اعجابه - اننا انما انكرنا سكوته عن القطن وأردنا منه أن يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن (طالعا) وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟؟

والفريق الآخر من الساخطين هم أولئك الذين عرفوا بانهم شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمناذات الليلية) فما رأينا أحرا من سخطهم ولا أكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعله ، وهذه آخر اشارة نلمح اليهم بها .

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين وأشبههما بالحق اننا اخترنا أو هن قصائد شوقى

واكثرها مغامر . وليس هذا صحيحا فاننا انما راعينا الحدانة فيما اخترناه من قصائده وهى لا تقل فى اعتقادنا واعتقاده عن اجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة — كما قلنا فى الجزء الأول — هى ان قراء اليوم غيرهم بالامس فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هذا القول باننا-انما كنا نصوب الانتقاد الى شاعرية شوقى وذوقه وروح قصائده ومنهج ادبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأني ، واذا كان الطعن فى الشاعرية والعاهة فى الذوق والاعوجاج فى المنهج فاختلف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب لا يقدم ولا يؤخر فى الحكم على الشاعر . ولعلمهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون ان القديم والحديث فى شعر شوقى سواسية .

اما ثانى الاعتقادين فهو اننا اغلطنا العصا لشوقى وشددنا عليه النكير . ولهؤلاء نقول اننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المترابكة وما احوج البرهان فى هذه الى الشدة وما اقل ما يغنى فيه اللين والهوادة .

ومما استصعبوه اننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فياعجبا !! كأننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الامة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة فى أشنع ضرورها !! واى حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقا؟؟ فنحن لا نرى للرجل فى انفسنا قدرا يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتفريع وهذا ما اعلناه فى توطئة الجزء الاول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الأجزاء التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يفضب لكرامة الفكر تداس هوانا ولضمير الامة يلطم على وجهه عيانا فليفضب علينا ما شاء فانه لا يعرف كيف يفضب .

وكاننا بزمرة شوقى يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التي يفضب لها الناس في آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا تؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الاول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الادب، وما ترخص له المحاكم في التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال في حاضر الزمان ، لا في سالف العصر والوان . وفي الجزر البريطانية لا في جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص - لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكر في النفوس الضرم . شاعت شركة جنازوزان ان تقتبس منها ابيانا لترويج غذاء مشهور من اغذيتها التي تجهزها لمدواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من امر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذي قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا انه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا ان وكيله - ويدعى المستر هيوز - وقف فطلب الى القضاء منع الشركة من امتنان الابيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن اصعب الاشياء ان يتخيل الانسان امرا اشد ايلداء لنفس المؤلف من ابتدال كلامه بادماجه على هذه الصورة في صياح الباعة على سلمهم . انها لاهانة لا تقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه اقل مسحة من الكرامة الادبية » .

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه علر الشاعر وقال : « لا عجب ان ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة - وعندي

ان هذا الاقتباس لا يدخل في حق الاستشهاد الذي يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١» وحكم بتفريم الشركة اربعين شلنا تمويضا للاهانة التي الحقنها بالشاعر (١) .

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكها بروايتها عن تلك العنقاء التي يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير في غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفككة .

لمثل ذلك الابتدال يفضب اديب الغربيين ويقول محاميهم انه أشد ما يتخيل ايداء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح ان التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لان أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للفيرة الأدبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا انه « أسرى مروءة الدنيا وأدنى مروءة السرى » كما كان يقال في عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولفزا مغلقا ، لان هذا الذي أنف كبلنج أن يصنع شعره على غيره على غير علم منه قد صنعه شوقي شعره مختارا وتعمد أن يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم أبياتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها في الصحف ؟ بل فقد قال ادامة الله للدكاكين والماتم والافراح والسهرات :

له ريشة صادق من ريشة تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة في المشارق كلها حسنا وفكتها من التقيد

(١) جريدة الدبلى كرنكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

وتهدى لحسن الخط كل مقصر	وتهدى في الاحسان كل مجيد
اغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها	من ريشة الالماس عند الغيد
والذفوف الطرس ان خطرت به	من ريشة الليثي فوق العود
وتكاد تحيي مؤنسا بصريها	وتقول ايام ابن مقلة عودي
لو لم يكن في الامر الا انها	مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفي هذه الايات اوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة -
 شعر لا يتأبه صاحبه ان ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقريه
 دراجة لبانت ان اخيلته وابتكاراته هي ومبالغات الباعة وتزويقات
 الدالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة
 كتابة بانها « اغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى في
 قوارع الطرقات « يا جواهر يا غنب » والذي يدل على ريشة عربية
 بانها « حسنت الكتابة في المشرق كلها » انما يرشف من البحر
 الذي تغرف منه « الفرص الحقيقية واحسن بضاعة في العالم كله »
 و « ولم لم يكن في الامر الا انها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب
 الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى ان
 الباعة لا يغلطون غلطة شوقي فيقولون وهم يعرضون الريشة
 ويمدحونها بالجدة والسلاسة ان لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!
 وبعد فان المرء ليزدري العقل الانساني نفسه ان قيل ان هؤلاء
 الصماليك الفكريين الذين تفوم عليهم الامارة الشوقية من ذوى
 مزاياء وحمة امانته في الارض . فالادباء في الامم هم عنوان حياتها
 الروحية والفكرية ومعيار لما تحسه من مفاخر الحياة وقوى
 الطبيعة ومعانى الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور
 السماوى الذى يفيضه الله من الايات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه
 كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة في الامم صفحتها الواضحة
 وطبقته المتأزجة الراجحة ، فقل لى رعاك الله اى هذه الطغمة اميرا
 كان او مأمورا تفخر الامة الحية بانه صورة ما في نفوسها من زينة

وجمال ومظهر ، ما في رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول
 بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط في الوجود ، وتراث مقسم بين
 ابتاء آدم . وان المرء ليزهى بآدميته حين يلقي بنفسه في عمار الآداب
 الغريبة ، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهاها
 ومتجهاتها وتجاوب اصداؤها واصواتها - ابواب للكتابة متنوعة ،
 ومهايع متسعة ، وفنون مبتدعة . ونحل ومذاهب ، ومدارس
 ومشارب . والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر في كل
 شية من شياتها ، محسوسة في كل حطره من خطراتها ، متكررة
 متضاعفة ، شاكّة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية
 متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة يناييعها مروية ، والنفس
 تحس من احدى نواحي ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها .
 فكانها نفوس متفرقة لانفس واحدة جائمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الى الأدب الذي يدعيه أولئك الاميون
 العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة
 المتطفلون على موائد الخاصة فتري عجا . ترى هذا عاكفا على
 رقمته ولعلمه وذاك مدبرا الى ربربه وسربه ، ومادحا وهاجيا
 ومحسوبا على آل فلان و متمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول
 خاوية واخيلة في التراب ثاوية . او كانما هي الانتقال الى القرار
 هاوية . فصدق احدى اتنتين : اما أن أدبا تسمعه من هؤلاء أشرف
 ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى أسمى معارج الإنسانية . أو
 أنهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلتها نباغة
 الطبع و امتياز المدارك و وفور الشعور .

وان من الجناية على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء النفر بعد
 اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة
 فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من
 اغراضه او يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات
 أرزاقهم بمرض لعابنهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا « الككتور المصرى »

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وأنشاد الأشعار بأيسر مما يساق
المولوية لتشجيع الجنائز وتلاوة الأذكار !!

ولقد كان مما قيل في المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها إحدى
الحواجز التي تصونها أن تترد إلى العصور المظلمة وأنها عصمة لها
من أن تستبد بمقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو
طائفة ، وأنها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة وبحسب
حسابه كل طائفة - فأى عصمة لمصر في أقلام هؤلاء المخططين
والنظاميين وهم بهذه الحال من الخور والمداجة ؟؟ إلا أن العصا في
يد الأكار لانفع لمدينة مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه
تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون أنفسهم من الكرامة فلا احجاف
بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطاة القلم المنصب عليهم . ولقد
وجب بل آن أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان
لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

وكانما شاء القدر أن يبدد حبال شوقى وطلاسمه كلها في
بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم في مصر عليّة
القوم يتنون عليه فيفترون بتشجيعهم له ويروعهام امجابهم به
ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغاني
فأماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة امجاب هؤلاء
العليّة اذا أعجبوا وقيمة استحسانهم اذا استحسناوا . وأنها إن هي
إلا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة الإدارة

شمرت اللجنة عن ساعديها وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما
يصنع المشعوذ الهندي اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها في الجراب
فاخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به

للملاكي يشاركها في الابتهاج به فيللمهارة !! ولكنها لسوء حظ شوقي
كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث في الجلسة
مما اظهر اطلاع أكثر الأعضاء على النشيد قبل التثامها اكتفاء
بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول ،

فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المقينين والعوادين -
وهم أعضاؤها الإخصائيون - اختارت نشيد شوقي وأعلنت أسباب
اختيارها له في منشورها وهي أنها « انتهت في مناقشتها الى أنه
اكفأها وأوفأها بالفرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي أن تتسق
لنشيد قومي » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان
عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء أن الأستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في
الصحف يتقد النشيد ويقرر أنه لا يصلح للتلحين بانغام الاناشيد
القومية . ثم انهم يذكرون أن فريقا من أعضاء نادى الموسيقى من
الذين كانوا في لجنة الأغاني اذاعوا بعقب ذلك في الصحف أن الأستاذ
اتما يتكلم براهيه ، ومعنى هذا أنهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين
مصرين على حكم اللجنة مجدين في إبعاد كل مظنة في صلاحية
« النشيد الوطنى المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة وهذا الأصرار
الصادر من روية ؟ .

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هي أمامهم وأقبلوا
يسألونها وهي محتدمة تصفيقا : ما هذا الذى تصفقه له ؟؟ نعم لم
يعد يغنى في هذه الأمور أن يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون
وراءه . وكثر اللفظ بتحيزها واجتراء الموسيقيون على الأفضاء
يأرائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه اول

بك جلبي باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك فرق الكشفة للكشاف الأعظم ثم ابدات الحفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقي بك فنشيد الكشفة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الأمير واعتذر عن سموه بكلمات رفيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة وألقاها بين الإعجاب والتصفيق الشديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الأمير ساعة ذهبية اثرية ثمينة وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمئة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدى وألقى قصيدة عامرة اثنى فيها على سمو الأمير لتعزيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من أصبعه خاتما من الماس ووضع في أصبع الأستاذ القصرى وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغنى شيخ السادة المرغنية بمصر خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عيش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم وأقبل المدعوون وهم يريدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر .

انتهى ما نقلناه من المقطع . فليتامه القارئ وليتصور اسم شوقي مجرداً من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . .

وتم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها في انصافها وفي الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشط الواهب الفتية التى تنهض اليه لولا انها أثرت لنفسها الخطأ العجاء على الخطأ المثلث . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى بجمع المسابقات (أكاديمية كوتكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثنى عشر ألف فرنك للسابق من الادباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة

المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها .
أفيدري القاريء من هذا ارنست بيروشون ؟

نقلت الأنباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم
الفرنسى يسأل من شأنه فاذا المسئول والسائل في العلم به سواء .
راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فالفوها خلوا من كل
اشارة اليه أو الى اسم قريب منه . فترجعوا النبأ متبوعا فيه اسمه
بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد
قلقت نظرى عنوان فى احدى صفحه هذه ترجمته « خير روايات
العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١)
فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك
كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس « وكان
بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا
تماما وان كان قد طبع فى الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص
.. ولم يكن احد من أعضاء المجمع يعرفه الا أن أحدهم قرأ قصته
القدمة اتفاقا فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء
النابيين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز استاذ القرية المتواضع
دونهم بمشعل النصر » .

فيا قوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب .
تلك لجانهم تعدل فى احكامها هذا العدل وتحى كل ملكة سالحة
للحياة وهم لا ياتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف
لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير الجمالة ولا
تحسن ان تجمال الا بان ترضى فردا لتقفى على أمة كاملة بالمقم
والافتقار ان فى ذلك لوعظة .

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد ١٢ ديسمبر ١٩٢٠ .

وخاصة القول أننا عرفنا رأى القراء فى عملنا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يفتىء الى شعره فقد اسخطناهم ولا نسال الله ان يخفف سخطهم . واما الذين يرجعون الى الاسباب فقد وثقنا منهم بالموازرة وكان اقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم أنه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الأولين يمثله كتاب ورد اليها غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته :
« خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وامثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل رأى الآخرين بيت لقينا به اديب مشهور فقال : ايه يا فلان ، اليك بيتا يسير مسير الامثال :

شوقى تولاه عباس فاظهره واليوم يخمله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل انه مصر يخمل عصرا ولافيه وهم تخفتها صبيحة حق . واننا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سمسرة شوقي : ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟
انتقده ؟ قلت وماذا عساي أن أنتقد أن لم أنتقد الهراء والثرثاء
والشتات ؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتني هداك الله
فما كنت اظنها آية لأحد من العالمين وما حسببتها الا زلة اسقطته
فيها « مغالبة الشجون لخاطره » أو داهية خانه فيها امكانه الذي
ما فتىء يخونه كما قال منها :

ماذا دهاني يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني امكاني

وما دهاه الا العجز والفهاة والخرج . دهرته اولا فاجبل
وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها في أربعين يوما ثم زاد كثيرا من
أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهرته ثانيا فجرى فيها على عادته من
التلفيق والعقم والزغل الموه . فأما وقد علمت أنها الآية التي بها
تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التي يستنصر بها دعاة
فبآيته فلندحض رسالته وفي معقله الحصين فلنكشف وهنه
ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل واى معقل
ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل اخوى
من ذلك وأضعف ، وأضال في الضلالة وأسخف ، أراحه الله من
شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وأن
كان يزعج بديهته في صباح ومساء ، ولا كد لهم خطرا وان كان

خاطره منه في وصب وشقاء . ولقد فات اصحابنا سمسرة شوقى ان خلافنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما اجاد شاعرهم في رأيهم او خيب آمالهم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على ادائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة اخسها عندنا بعدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نمزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان ابعد عن حالة الصحو والصواب وكالاعجمي كلما امكن في فصاحته وبيانه استطلق على مسامح الاعراب . وهذا هو الواقع في ما آخذناه وناخذ على شعر شوقى وهو بخاصة شائنا في الحكم على قصيدته هذه التي رأينا بعض المفتونين يجلبها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب ، وهى لو يفقه من القصائد التي يصاب منها المذهب العتيق في مقاتله والشواهد التي يبحث عنها لابرار ماآخذ . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الاول فيها .

فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقى وأضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن أشهرها وأقربها الى الظهور وأجمعها لأغلاطهم عيوب أربعة وهى بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر - وهذه العيوب هى التي صيرتهم ابعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس الانسانية في اصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الرنجى عن المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماركولى عن نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآتية أثر ظاهر في هذه القصيدة قد لا تجده في غيرها من القصائد المزوية أو دقيقا عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار ان من نقائص الشعر ما لا يمنع أن يامح له رواء معجب يستهوى البسطاء بل ربما زادته جمالا في الظاهر كالحلى المزيفة فانها في القالب أجمل

من كَرِيم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة
غاليه .

(١) التفكك

فاما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات
متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه
بالوحدة المعنوية الصحيحة إذ كانت الفصائد ذات الأوزان والقوافي
المتشابهة أكبر من أن تحصى فإذا اعتبرنا التشابه في الأعرابض
وأحرف القافية وحدة معنوية جاز أذن أن ننقل البيت من قصيدة
الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز .
ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل
فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه
والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا اختلف الوضع
أو تغيرت النسبة اخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة
الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته
ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم
عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه
مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون
الهمج المتأبددين فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره فى تنسيق
عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الا حيث تنزل بهم عمالة
الوحتية الى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية فى الجهالة
ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها
فاعلم انه أفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة
بل هو كامشاج الجنين المخرج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء
العلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف
وأجهزة ، وكلما استفل الشيء فى مرتبة الخلق صعب التمييز بين
أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها فى اللون والتركيب

صالحة لأن تحل في أى مكان من البنية التى هى فيها . فإذا ارتقيت الى النبات الفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللألياف وظيفه غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه فى أشرف المخلوقات وأحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى أجناس الناس كما تتمشى فى أنواع المخلوقات ومصادق ذلك ما نشاهده من تقارب الاقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة وألسها البحرى فى هجوه لمعشر ينعمهم بالهوان والضعفة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة حص اللحي متشابهو الالوان
لو يسمعون بأكلة او شربة بعمان أصبح جميعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت اقدارا وملامح وبدوات واطوارا حتى ليوشك أن يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الدهن ونزعته . وتقترب مما نحن بصدده فنقول أنك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الأدب الفيت تشابها فى الأسلوب والموضوع والمشرّب وتمائلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الأسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون أفر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت وهذا بيت القصيد واسطة العقد كان الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشتري كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبس شيئا من جوهرها وهذا ادل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكره وجفاف السيفه فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صلده متصل الأشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة،

او كأنما هي ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة
ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة
واحدة على اعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز
كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه ساقله أو وسطه في قمته ،
لا كالبناء المقسم الذي ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه
ومزاياه .

وهاه كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى
كامل نسال من يشاء أن يضعها على أى وضع فهل يراها تعود الا
كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء الا احقاف خلت من
هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية
ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها . وتقريراً لذلك نأتى هنا على
القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يتعدجد
الابتعاد عن الترتيب الاول ليقراها القارئ المرتاب ويلمس الفرق
بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح
لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على
فضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا أنها كما نرجو
لا تضيع عبثا - قال شوقي أصلحه الله :

- ١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في ماتم والشدائي
- ٢ يا خادم الاسلام أجز مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
- ٣ لما نعت الى الحجاز مشى الانسى في الزائرين وروع الحرمان
- ٤ السكة الكبرى حيال رباها منكوسة الاعلام والقضببان
- ٥ لم تألها عند الشدائد خدمة في الله والمختار والسلطان
- ٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا في المحظين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سحجان

- ٨ جار التراب وانت اكسرم راحل
 ماذا لقيت من الوجود الفانى
- ٩ ابكى صباك ولا اعاتب من جنى هذا عليه كرامة للجاني
- ١٠ يتساءلون ابا السلال قضيت ام
 بالقلب ام هل مت بالسسرطان
- ١١ الله يشهد ان موتك بالحجا
 والجسد والاقدام والعرفان
- ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت البنى
- ١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال لنا وامانى
- ١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى ولرب حى ميت الوجدان
- ١٥ الناس جار في الحياة لغاية ومفصل يجرى بغير عنان
- ١٦ والخذل في الدنيا وليس بهين عليا المناصب لم تتح لجبان
- ١٧ فلو ان رسل الله قد جبنوا لما
 ماتوا على دين ولا ايمان
- ١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة
 جمعت لها الاخلاق كالعنوان
- ١٩ واحب من طسول الحياة بذلة
 قصر يريك تقاصر الاقصران
- ٢٠ دقائق قلب المرء قائمة له ان الحياة دقائق وثوان
- ٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
 فالذكر للانسان عمر ثن
- ٢٢ للمرء في الدنيا وجم شئونها ماشاء من ربح ومن خسران
- ٢٣ فهي الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان
- ٢٤ الناس غاد في الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهانى
- ٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة في طيها شجن من الاشجان
- ٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
- ٢٧ يظاهر الغدوات والروحوات والخطرات والاسرار والاعلان

- ٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
 ٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران
 ٣٠ لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
 ٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكي بدمع قان
 ٣٢ يزجون نেশك في السناء وفي السنى
 فكانهما في نেশك القمران
 ٣٣ وكأنه نعيش الحسين بكر بلا يخال بين بكى وبين حنان
 ٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
 ٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
 وجلالك المصدق يلتقيان
 ٣٦ سقت لمنظرك الجيوب عقائل
 وبكتك بالدمع الهتون غوان
 ٣٧ والخلق حولك خاشعون كمهدم
 اذ ينصتون لخطبة وبيان
 ٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر ام باى لسان
 ٣٩ فلو ان اوطانا تصور هيكلنا دفنوك بين جوانح الاوطان
 ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
 ٤١ او صيغ من غرر الفضائل والعلی
 كفن لبست احاسن الاكفان
 ٤٢ او كان للذكر الكريم بقية
 لم تات بعد رثيت في القرآن
 ٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والداء ملء معالم الجثمان
 ٤٤ يبغي وبطفى والطبيب مضلل
 فنظت وساعات الرحيم سر، دران

- ٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها
 دمع تعالج كتمه وتملى
 ٤٦ تلى وتكتب والمشاغل جملة
 ويداك فى القسطاس ترتجفان
 ٤٧ فهششت لى حتى كانك عاتى
 وأنا الذى هـد السقام كيانى
 ٤٨ ورايت كيف تموت آساد الشرى
 وعرفت كيف مصارع الشجعان
 ٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائمها
 ما للمنسون بدكهن يدان
 ٥٠ وجعلت تسالنى الرثاء فهاكه من آدمى وسرائرى وجنانى
 ٥١ لولا مقابلة الشجون لحاطرى لنظمت فىك يتيمة الأزمان
 ٥٢ وأنا الذى أدنى الشمس اذا هوت
 فتعود سيرتها من الدوران
 ٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
 وتجل فوق النـسـرات مكانى
 ٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقتنى
 فىك القريض وخائنى امكانى
 ٥٥ هون عليك فلا شسمات بميت
 ان المنية غاية الانسان
 ٥٦ من للحدود بميتة بلغتها
 عزت على كسرى انوشروان
 ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
 فهل استرحت ام استراح الشانى
 ٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها
 هذا ترى مصر فنسم بامان

- ٥٩ اخلع على مصر شبابك عاليا
والبس شبابك الحور والولدان
٦٠ فلعل مصرا من شبابك ترتدى
مجدا تنيه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض المضاء تحرك الهرمان
٦٢ علمت شبان المدائن والقري
كيف الحياة تكون في الشبان
٦٣ مصر الاسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظمـامك حان
٦٤ اقسمت انك في التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

كذلك انتظمت لشوقي مرثاة في مصطفى كامل وسماها قصيدة
لأنها لم تأب ان تستقر في قرطاس واحد ، ولقد كان أخرى بها أن
تسمى أربعة وستين بيتا منظومة في كل شيء أو في لا شيء . فاعتبرها
أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر أربعة
وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها
ربحت وعادت احسن نسقا واقرّب نظما - قال شوقي أيضا :

- ١ المشرقان عليك ينتعجان
قاصصيهما في ماتم والسداتي
١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى
ولرب حي ميت الوجسدان
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان
٦٤ اقسمت انك في التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

- ٢٧ يا طاهر الفدوات والروحوات والخط
 سرات والاسرار والاعسلان
 ٩ ابكى صباك ولا اعاب من جنى
 هنا عليك كرامة للجاني
 ١٩ واحب من طول الحياة بذلة
 قصر يريك تقاصر الاقران
 ٥٦ من للحسود بميتة بلفتها
 عزت على كسبرى اتوشروان
 ٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل
 وبكتك بالسمع الهتون غوان
 ٥٥ هون عليك فلا شمات بميت
 ان النية غاية الانسان
 ٢٠ دقات قلب المرء قائلة له
 ان الحياة دقائق وثوان
 ١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
 هل فيه آمال لنا وامانى
 ٦٠ فلعل مصرا من شبابك ترتدى
 مجدا تنيه به على البلدان
 ٤٢ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والناء ملء معالم الجثمان
 ٤٤ يبغى ويطفى والطبيب مضلل
 قنط وساعات الرجيل دوان
 ٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائما
 ما للمنون بدهمن يمدان
 ٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
 بعض المضياء تحرك الهرمان
 ٤٦ تملى وتكتب والمشاعل جمة
 ويداك فى القرطاس ترتجفان

- ٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تعالج كنمه وتعاني
- ٤٧ فهشت لي حتى كانك عائدي
وانا الذي هد السقام كياني
- ٥٠ وجعلت تسالني الرثاء فهاكه
من آدمي وسرايري وجنساني
- ٤٨ ورايت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
- ٥٤ ماذا دعاني يوم بنت فمقني
فيك القريفي وخاني امكاني
- ٥٢ وانا الذي ارثي الشمس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
- ٥٣ قد كنت تهتف في الوري بقصائدي
وتجل فوق النيرات مكاني
- ٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطري
لنظمت فيك يتيمة الازمان
- * * *
- ٥٨ يا صلب مصر ويا شهيد غرامها
هنا نرى مصر فنم باملن
- ٦٣ مصر الاسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظامك حان
- ٣٤ في ثمة الله الكريم وبيره
ما ضم من عرف ومن احسان
- ٤١ لو صيغ من غور الفضائل والطي
كفن لبست احاسن الاكفان
- ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان

- ٤٢ و لو ان اوطانا تصور هيكلا
دفنوك بين جوانح الاوطان
- ٤٢ او كان للذكر الحكيم بقية
لم تات بعد رثيت في القرآن
- ٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد
في الله من خلد ومن رضوان
- ٦ ياليت مكة والمدينة فازتا
في المحفلين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الاواخر يومذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحجان
- ٣ لا نعت الى الحجاز مشى الاسى
في الزائرين وروع الحـرمان
- ٤ السكة الكبرى حبال رباهما
منكوسة الاعلام والقضببان
- * * *
- ٨ جار التراب وانت اكرم راحل
ماذا لقيت من الوجسود الغلى
- ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشانى
- ١٠ يتساءلون ابالسلال قضيت ام
بالقلب ام هـل مت بالسرطان
- ١١ الله يشهد ان موتك بالحجى
والجسد والاقدام والعرفان
- ١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الاخلاق كالعنوان
- ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فانت البانى

- ٢٨ هل قام قبلك في المداين فاتحا
فاز بفكر مهندس وسنن
٢٠ يدعو الى العلم الشريف وعنده
ان المعلوم دعائم العمران
٢٢ علمت شبان المداين والقري
كيف الحياة تكون في الشبان
١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين
عليها المناصب لم تتح لجبان
٢٣ فهي الفضلاء لراغب متطلع
وهي الضيق لمؤثر السلوان
١٧ ولو ان رسول الله قد جينوا
لما ماتوا على دين ولا ايمان
٣٠ لفسوك في علم البلاد منكسا
جزع الهلال على فتي الفتيان
٢١ ما احمر من خجل ولا من ربة
لكنما يبكي بدمع فان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدق يلتقيان
٢٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكانما في نعشك القمران
٢٣ وكانه نعش الحسين بكربلا
يختال بين بكى وبين حنان
٢٧ والخلق حولك خاشعون كهمهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان
٢٨ يتسائلون باى قلب ترتقى
بعد المنابر ام باى لسان
٥٩ اخلع على مصر شبلك حاليا
والبس شباب الحور والولدان

- ٥ لم تألها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان
- ١٥ الناس جار في الحياة لفاية
ومفضل يجرى بغير عنان
- ٢٥ ومنعم لم ياقى إلا لـ
في طيها شجن من الاشجان
- ٢٢ للمرء في الغنى وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خسران
- ٢٤ والناس غاد في الشقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهاني
- ٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سسيان
- فانظر ايها الفارئ الى هذه المراثاة هل ترى بينها وبين سابقتها
من تفاوت ؟ على أننا قد تناولنا الأبيات عفوا كما بدرت لنا ولم نحتر
الاقصاء في الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التي تعلق الاسم
على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التي تصل
الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناها لم يكدر يجتمع بيت من
القصيدة على بيت ، وإنما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال
القارئ نفسه : هل قرأ في الشعر أشد تفككا منها ؟ فعلى حسب
الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبعت
من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل
الوهاد والنجاد أو تقطرات من عقل ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة
بخلع الضرس وبخلع النفس فتأتي كالرشاش لا يتولد منه إلا الوحل
واليبس ؟
- وقبل أن نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية
ننبه من يستبهم عليه الامر الى أننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقسية
المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وإنما نريد أن يشع
الخطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما أسلفنا
بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا في هذه
القصيدة .

(٢) الإحالة

أما الإحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الإعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهد ما كيرة في هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لأنها لا تقام على أرجل وإنما تطرح على الأرض كما يعلم شوقي . اللهم إلا إذا ظن أنها أعمدة تلفراف . على أنها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان في المعنى طائل إذ ما غناه قول القائل في رثاء العظماء أن الجدران أو العمدة مثلاً نكست رؤسها لأجله ؟

ومنه قوله :

إن كان للاخلاق ركن قائم (في هذه الدنيا) فانت البقي

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والأداء أجمعه على طريقتيه ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئاً ولما كان على من يؤتى هذه القدرة من المنطق ضميراً ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولاي قصد إنما يحتاج إليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فإن لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر إذا لم يصح أن يقال في إنسان

معلوم أو صح أن يقال في كل إنسان : في السياسي والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ ان يفهم انه وحده هو الباني لكل وكن للاخلاق في هذه الدنيا ؟ اذن فماذا يقال عن النبي ان قيل هذا عن الزعيم السياسي ؟

وهل لا يصح حينئذ ان يقال هذا القول في قائد الحرب وفي جوابة الافاق وفي خطيب المحافل وفي التاجر السرى والوزير المحنك والمربي المرشد والمخترع الحاذق في كل انسان بل في الناس جميعا بل في مخلوقات الله وكائناته طرا من حى ونابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمداول سواء ارضيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بعده آلاف الملايين منذ الوف السنين .

ولا جرم فان كونفوشيوس وحده صاحب شريعة في قومه ، وهبه نيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل انه موقظ كل نفس بمصر في عصره لما كان هذا حقا اذ كم في مصر من رجل يقظه ما يقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من اناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر في كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الأمم في جميع العصور فالامر شر من اللغو وأقبح من السفه - هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضة السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الاخلاقى فزعم ان ليس للاخلاق ركن قام في هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد في اواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟

اذن يكون بكم العجاواى خيرا من شعر الادميين كما قلنا فى
فصل مضى .

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
هل فيه آمال لنا وامانى

لو سأل : هل فى قلبك المدفون فى الثرى آمال لنا وامانى
لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . اما الذى
يسأل ان يفتش فلا يصح ان يسأل هل فى قلبك آمال وامانى الا فى
معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يمشى : يا هذا
الذى يمشى هل انت حى ؟

ولقد قال حكيم :

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقى
فكل من يفرض فيه انه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، به
كبار النفوس وبعيدى الهم ومنها :

فلو ان رسل الله قد جئنا

ماتوا على دين ولا ايمان

المصواب فى اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لازمة فى اصغر
المطالب واقرّب الفايات كما يقال فى اظهار فضل المال ان الانسان
لا يقدر على ان يشتري ابرة بغيره ولا يقال فى الدلالة على شدة
لزومه وبيان الحاجة اليه انه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا ان احقر الناس خليف ان لا يكسب قوته القفار
بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، اما الاستشهاد على قدرها
واستجاشة الناس لها بانها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس
قاطبة ان يقتنوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون الى الشجاعة . اما
ان قيل ان الشاعر يعنى ان الرسل الذين تمدهم قوة الله وتويدهم

روح الله لابد ان يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من
فارغ الكلام بما هو افرغ منه وهل اذا سمعت ايها القارئ رجلا
يخبرك ان المصارع المؤيد بالمنة ومثانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان
قويا اكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق ان ينظم في بيت شعر ؟ فهذا
الذي يخبرنا به شوقي ان صح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :
فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضييق لؤثر السلوان

والذى يقوله الناس - وشوقي منهم اذا شاء - ان قضاء الدنيا
يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تازم بالطامع المتدفع ،
لبعد آماذ همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى
ينفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب !!

فاما القول بان المطامع تفسح الدنيا والبلوان يحررها فسراى
لا يخطر الا على فكر كفكر شوقي المقلوب .
ومن هذه الاحالات هذه الفهاة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها

نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف اما الصبر على نعمها فعاذا
هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا ان المصائب والخيرات سيان فلا غرابة
فى ان يصبر الانسان على النعمة وان تيطره المحنة . هكذا يقول
شوقي وما اصدقه فاننا لا نرى منحة هى اشبه بالمحنة من هذا
الشعر الذى انعم الله به عليه . والله فى خلقه شئون .

ويقول :

يزجون نعيشك فى السناء وفى السنى

فكانهما فى نعيشك القمران

وزعيمنا الفقيء كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى
ذلك النعش !!

ولا يقال ان صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لأن السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو إنه قال « كأنما في نعشك القمر » أو « كأنما في نعشك الشمس » لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمري كيف يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقضاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الأفلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالدرسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرىء وامرئى ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف . ويقول عافاه الله :

وانا الذى أرثى الشمس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
اى والله ظاهر . لكن الشمس والاقمار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر . ويقول :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها
هنا ترى مصر فتم بأمان
وتقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء ان نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف ان يقال لرجل مات فى وطنه : احببت بلدك فتم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد أنه سيدفن فى غيره . ومن مبالغاته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :
فلو أن بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب في البيت المتقدم والهرمين في
هذا البيت ونحن ننعى على هذه المبالغة دائما انها لا تدل على شيء
فهب انه قال :

فلو ان بالقطين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان
او قال :

فلو ان بالشطين من عزماته

بعض المضاء تحرك الشيطان

الى آخر المثنيات التي تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت
في رثاء مصطفى أو رثاء باستور أو في رثاء ابن زريق أو مشهور
كأننا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير
موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟
ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها

قبر ابر على عظامك حان

مصر ايها القاريء - ولا تخطيء فتحسبها القاهرة المعزية فانها
مصر بريفها وصعيدها - مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فلهذا
شاعرها يرى رجلا احيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولاى ضرورة
وليدل على ماذا ؟ لا شيء .

وقد اجتازنا بهذه الابيات ، لا لأنها كل ما في القصيدة من شواهد
الإحالة وأعوجاج الطبع ، بل لأنها ذات طعم وان كان رديئا مجوجا
وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة
بجملتها بنت الإحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فاتها
أكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

(٢) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المفيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرتاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فأرفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر نان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما فاته وفصول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعبيهم
أذ ينصـون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبى الحسن الأنبارى فوق تشويهه وذلك حين يقول فى رثاء الوزير أبى طاهر الذى صلبه عضد الدولة :

كانك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة

وتقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به وإنما يفعل ذلك اللاعبون فى المعارض المتنقلة.

وقوله .

او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفلسان

ماخوذ من بيت ابن النبيه في قصيدته التي لم تبق صحيحة لم
تستشهد بمثلها :

الناس للموت كخييل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت في التراب ولو انصفوا ما كنت الا في صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتداله وسخفه ان تنظمه «عوالم»
الافراح في اغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا ارفع من
القائنات « احطك في عيني يا سيدى واتكحل عليك » وانه ليقول
كما قلن :

ولو ان لى علم ما في غد خباتك في مقتلتي من حذر
وقوله :

او كان للذكر الحكيم بقية لم تات بعد رثيت في القرآن
منظور فيه الى بيت المعرى :

ولو تقدم في عصر مضى نزلت
في وصفه معجزات الاى والسود

وهذا البيت :

او صيغ من غرد الفضائل والعلا
كفن لبست احاسن الاكفسان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ربا حنوطه
ولكنه ذاك الشئ المخلف

فما اضاف شوقي الى هذه المعاني سوى انه جعل الاتقان تصاغ
وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانا تصـور هيكلـا
دفنوك بين جوانح الاوطان

يريد جسدا . كانه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسدا لم
يدفن الفئيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقي ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته :

لما نعت الى الحجاز مشى الأسى
اليست هي شطرة الشريف في إحدى همزياته :
لما نعتك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول
الشريف ايضا « ان المنية غاية الابداد » وكان القافية صدته عن
انتهاج الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى او نأى فان المنيا غاية القرب او قصارى البعاد
فاتم الفنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرفاته في فصل
على حدة .

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعمهم بالأعراض دون الجواهر
وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة
الدالة على انماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق

بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها في الصدور عن طبع اعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفتن الى الاحالة ولكن الفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبدهة كما يفسر على الإطعال ادراك رزاة الرجل انظر ايها القارئ الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت الفصيد في راي عشاق شوقي فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنة او مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد اتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هذان الى واجب الضن بالحياة - وهنا يبدو للنظر في قصر المسافة التى يذهبون اليها في اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المائية او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟

أبهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينظم فى الحياة الإنسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟؟ ولقد قلنا فى نقدنا لثناء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الإنسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها » ونعتمد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . وبقيننا ان أحدهم لو سمع

ناصحا يعظه في موقف جد - وأى موقف جد أجد من رثاء
 النابئين ؟؟ - فيناديه يا أخى صن وقتك لأن قلبك ينبض كما تنبض
 الساعة لأغرب في الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك في
 عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ،
 وما ذاك الا لحسابه ان الهزل جائر في الشعر فكاهة وحكمة ، ولو
 علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه
 ويلهو به .

وهكذا البيت أخواه هذان

لفؤك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتي الفتيان
 ما احمر من خجل ولا من ريبة لكنما يبكي بدمع قان

وللعلم جوهر وعرض فاما الجواهر فهو ما يرمز اليه من مجد
 الأمة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية .
 واما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع
 الاعلام لأجله . فشوقي يولع بهذا العرض اذا هو نظم في العلم ولا
 يعنيه ذلك الجواهر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثى
 بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كي يكون لونها دمعاً ودمعها دماً
 منزوفاً . وليست هذه هفوة أو فلتة بدرت منه هنا بل هي دأبه
 كلما وصف علماً ، فقد قال في وصف الهلال الأحمر :

كان ما احمر منه حول غرته دم البراءة ذكى شيب عثمانا
 كان ما ابيض في اثناء حمرة نور الشهيد الذى قدمنا ظمنا
 كانه شفق تسمو العيون له قد قلد الافق ياقوتا ومرجانا
 كانه من دم العشاق مختضب يشر حيث بدا وجدا واشجانا
 كانه من جمال رائع وهدى خلود يوسف لماعف ولهانا
 كانه وردة حمراء زاهية في الخلد قد فتحت في كفر صوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت

والمرجان في لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضابا لشبهة
او دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من
عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين
ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس
اذ هو قد وصف هلالا ابيض في اثناء حمرة والهلال الاحمر على
عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو انه تنبه اليه - ومع هذا فاني
لا قسم ان صاحبنا رص هذه (الكائنات) في آياته الستة ويخيل اليه
انه لو تقدم به الزمن الى عهد عمر بن الخطاب لقال اشعركم من يقول
كان وكان لا من يقول من ومن ..

ومن الغباء العجيب ان يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة
على نعش بطل من ابطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن
احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى ان يظن بها الناس
الظنون وهي بريئة عفة !! اذا ما الذي يخطر على باله الخجل والريبة
في هذا المقام وهو يرثي الرجل الذي يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت الباني .

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت أين تنتهي بصاحبها !! وليت شعري
شوقي اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟؟
اكان لا يرى للنعش بها أي معنى لانها لا تبكي بدمع أحمر ؟؟ .

تلك آية شوقي ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة .

كومة الرمل كما قلنا في أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبايع
بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الأغلاط ، وسعلا مرقعا
من النشور والاختباط . وما كان يسعه ان يخرج نفسه خلقا
آخر فيأني بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم في
اغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه ان يعلم ان السكة
الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين ودوع الحرمان السكة الكبرى حيال ربهما منكوسة الاعلام والقضببان

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارىء
للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال
ربى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة

وكان في مقدوره ان يعلم ان الحسين لم يشيع في موكب حاشد
كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه

وكانه نعش الحسين بكربلا يختال بين بكى وبين حنان
وقد رايانه يفر على قصائد الشريف امتراه لم يفقه رائيته التى
يقول منها في مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبه الا بوطىء من الجرد المحاضر
كان بيض المواضى وهى تنهبه نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه وقد اقام ثلاثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة . ومن العامة من يستظهر
خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى ائخن بالجراح وانه - لا حيا الله
قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة واكثر من اربعين ضربة ثم
ديس بالخيول ورض جسده واحتز راسه وطوفه ابن زياد الكوفة .
ثم ارسله الى يزيد في خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وانى لمن
يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه في المواكب !!
ولا نقول يختال بين البكاء والحنان فما من احد ينسب الاختيال
الى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشيع
قتيل الى قبره وزف عروس الى خلوها . فان زعم انه يقصد
موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة
الحسين فالخطا اعظم واقبح لاننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب

فما رايناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لانهم
أزكن من شوقى وادرى بما ينبغى ان يذكر به يوم الحسين اذ كانوا
يحتفلون بمصره فى ميدان حرب لا يمدفنه فى الثرى .

كان يسعه ان لا يقول ذلك كما كان يسعه ان يسكت ولكنه الهم
ان يستقصى عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا
يتداركه . وان يجتهد فى ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو فى الحقيقة
يكافأ المكافأة التى يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين
الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع
عنه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة أو يقال
عنه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

ولا ندع هذه القصيدة التى ملأها شوقى بما يسميه حكمة
وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبى ومضاربة المعرى قبل ان
تكشف عن غشاة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين
يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروى تلك البديهييات واشباه
البديهييات التى يتصنع شوقى بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من
هبنقيات وبيع نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة فى الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهى من أصعب
الشعر مراما وأبعده مرتقى لا أساس قيادها لغير طائفة من الناس
توحى اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجرى بها السنتهم آيات
تنفج ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى أحدهم بالكلمة العائرة
من عفو خاطره ومعين وجدانه فكانما هى فصل الخطاب ومفرق
الشبهات تستوعب فى أحرف معدودات ما لا تزيد الاسفار الضافية
الا شرحا وامتدادا وتسمعا فتشع فى ذهنك ضياءها وتترك كبف
يتقابل العمق والبساطة ويألف القدم والجدة : قدم الحقيقة كأثبت
ما تحلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التى
تطبع كل مرئى بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ
الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبي اللذين
يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

**تصفو الحياة لجاهل او غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع**

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبه
والغالط نفسه واع منتبه يحجب يديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء
هم الذين يفتنون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه
من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسانا غير هؤلاء
تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا
نقص بقدرة من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن
قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن
العبد :

**لعمرك ان الموت ما اخطا الفتى لكما طول (١) المرخى وثنياه باليد
وهذا اجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتنة بالأجل
وطورا تصل طرفى الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال
البحترى**

**متى اذت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه
وطورا تصدع براى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز
تغرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي المأثور
الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فاعله لا يظلم
أو كقول أبى فراس
ما كل ما فوق البسيطة كافيا فاذا قنعت فكل شيء كافى**

(١) الطول : حيل يطول للذابة لترعى والثنى الطرف .

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بغاث الطير أكثرها فراخا وإم الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك في كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا في كل نسج ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها - وضوح المألوفات كما صنع الأفوه الأودى بهذا البيت القل

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الأفلام بحثا وتنقيا في علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا وانعاما في شئون الأمم وراقبت الدول على سنن شتى من الأنظمة والدساتير فما خرجت كلها بزبدة أو جزو لا أصدق ولا أتم من هذه الحكمة التي اهتدى إليها هذا البدوي الناشئ في عصور الجهالة وانك لا تزن أمة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هي الحكمة الصادقة وهي كما ترى غير قاصرة على إيراد الحقيقة المسلم بها وانما هي الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصبية واللفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتدلة أو مغشوشة معتملة . أشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الفزير ،

وكانت تلك كمن ينشط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى
والهجير ، واحقق ممر يحمر البشر على شاطئ النهر من يروح
ويقدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التم حفلت
بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة
في البكور واحترم الاستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التواني
السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم - ينظمها ليشتهر
بالحكمة وليصبح من فوقها .

لي دولة الشعر دون العصر واثلة

مفاخرى حكى فيها وامشالى

فهل يدري القارىء من صاحب الحكم والامثال المخور ؟ انه
هو شوقى ، ثم هل يدري ما حكمه وامثاله التى استتبت له بها
دولة الشعر ؟ هذه هى :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته وليس اذا الاعلام خانت بخذل
والعلم في فضله او في معاخره ركن الممالك صدر الدولة الخالي
يقبل للعلم عند العارفين به ماتقدر النفس من حب واجلال

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونصرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الاول
نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم لحفظ الدرس .
حلى النساء الذهب وحلى الرجال الادب » وليسأل نفسه ماذا زاد
عليها ملك الشعر المتفرد بدولته واى ميسم يبدو عليها من مياسم
نفسه وماذا من وحى الشاعرية والهيام البصرية ونهية العبقرية
واصالتها ؟ اليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟

ومن اركان ملكه اعزه الله هذه الجمل المركة من ست كلمات
فاكثر فلبتلق الوحى اناس حجبوا عن صفاء الشاعرية
وليسعدوا :

المحسنون هم اللبّا ب وسائر الناس النفاية
ان القضااء اذا رمى ذلك القواعد من ثير
والمال لا تجنى ثمار رؤسه حتى يصيب من الرؤس مدبرا
الجند غاية كل لاه لاعب عند المنية يجزع المfrac

سر في الهواء ولد بناصية السهى

الموت لا يخفى عليه سبيل

فلم ار غير حكم الله حكما ولم ارد دون باب الله بابا
وان البر ابقى في حياة وابقى بعد صاحبه وثابا
ومن يعنل بحب الله شيئا كحب المال ضل هوى وخبا
وما الرزق محتجب حرفة اذ العظ لم يهجر المحترف
ما الدين الا تراث الناس قبلكم كل امرئ لأبيه تابع تال
ومن العقول جداول وعلامد ومن النفوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقمها

ليس الشجاع الراى مثل جبانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن اطفال حكاية تاجر الزجاج
مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان
يضحكننا أن نسمع الباجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال
واحدة فى اثر واحدة فيفهمه متندا انه : « ان آل لك حد الراكب
مثل الماشى اول له بتفشر . وان آل لك حد الغنى مثل الفقير اول
له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى اجرة « شيلة » حتى
راى شوقى أن يسمعنا نظما « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان
اول له بتفشر » فآمنا يخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه
من الاجرة الغالية !!

وهل علم أحد أن المسافر اذا آب فقد آب قبل ان يقول
شوقى :

وكل مسافر سيؤب يوما اذا رزق السلامة والايابا
ام علموا الحق حتى اخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا اياهم :
ليس الحق ان العيش فان وان الحي غايته المات
اليس كذلك ام ماذا بالله ؟؟

ام حكم احد الاحلام الا حين علموا منه ان :
الحق ابلج كالصباح لناظر لو ان قوما حكموا الاحلاما

ومن امثلة حكمته المفشوشة المعتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به

لا يؤكل الليث الا وهو اشلاء

والبيت من قصيدة في شكسبير . ومعناه ان جثة شكسبير
استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها - اى
انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى
اتلفها ولم تفتت هي حتى تفتت . مهابة واجلالا . . . وانه لما
اكلها اكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الاسد لا يؤكل الا عضوا
عضوا . .

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والارض والسماء،
المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والثناء ، المنعم عليهم بالذكر
والايام . . تصفيق متواصل . . لا بل ضحك تتجاوب به الاصداء،
على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر
وامير الشعراء .

فياهذا . ان جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لانها
في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة احساد كثيرة . وهي في
الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من اكملها الى ادناها . ولو

جاء أن يعظم أحد بأن يقال أن الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق
بإبطال الحروب إذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على
أقرانهم . ولكننا مع هذا نرى المتنبي يقول في أبي شجاع .

من لا تشابهه الأحياء في شيم

أمسى تشابهه الأموات في الرمم

وهو من نعلم محضا الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا
يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحي
فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى أنه لا
معنى لأن يقال أن البلى تهيب أن يتمشى فيه إلا بعد تقسيمه لأن
تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل
إلا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالغار أيضا لا يؤكل
إلا وهو اشلاء والدجاجة لا تؤكل إلا وهي اشلاء بل حتى الأرض لا
يؤكل إلا وهو اشلاء مضوغة وما من شيء يزدرد لقمة واحدة فيما
نظن ويظن جميع الأكلين . وصاحبنا يرى شاعرا فيخلط هذا
الخلط فعافاه الله أي نوع من أنواع العظمة يفقهه أن كان لا يفقه
العظمة التي يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟؟ وابن من تقدير
شكسبير من يرثيه رثاء إذا صح فيه فإنه يصح في كل حيوان ؟؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحكمة
إليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول أ

احذر التخمّة أن كنت فهم أن عزرائيل في خلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل من توقاه اتقى نصف العمل
اتخذ سكنا في طلق الجواء بين شمس ونبات وهواء
خيمة في اليد خير من قصور تبخل الشمس عليها بالمرور

وتقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب « احترس
من النشالين » و « ان اردت النزول اطلب من الكمسارى توقيف
القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل
البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتا يجوز أن يكون معناها
مطروقا شائعا ويجوز أن يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها
الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد كما هي
ونختارها من معان ورد مثلها في شعر المنبى الذى يقتفى شوقي
أثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والاقدام قتال

الف هذا الهواء اوقع في الأنف

فس ان الحمام مر المذاق

من اطلق التماس شيء غلابا

واغتصابا لم يلتصه سؤالا

من يهن سهل الهوان عليه

ما لجرح بميت ايلام

لا يعجب مضميما حسن بركة

وهل تروق دفيننا جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع
الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهى قد كان يمكن أن تقع لشوقي
من ذخيرة الأحاديث المشاعة فتسمعها منه كمعادته فى نقل هذه
الأحاديث منظومة فاذا هى مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة .
الحمام مر المذاق . القوى مفتصب . من هان سهل عليه الهوان .
لا يزين الدليل حسن البزة) وهكذا عهدنا الأمثال العامة فاذا شئت
أن تزن الحكمتين بميزان الصحين فكلاهما صحيح ، ولكن ليست

الصحة الواقعية هي ما نطلب من النفس المهمة والطبيعة المشرقة
والسريرة العميقة وانما المصدر الذي تجسست منه والشخصية
التي طبعتها بصورتها والقلب الذي خرجت من لدنه والحجة التي
صيرتها مقنعة شافية هي بفتنتنا من نجوى الالهام وهي التي يرتوى
منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبي « لولا المشقة ساد
الناس كلهم » ثم يتم المعنى لان هذه الشطرة التي لا تزيد البيت
صحة تزيده حياة وتنبتنا وحدها بان في البيت حقيقة اقرب بنا
وحجة الصق بنا وثمره اجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة
التي تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة
بانها « ألف هذا الهواء » فهل ترى اصدق من هذا التعبير !! اليس
المتنبي قد لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التي ليس كيانها
الا عادة تأنفها زمنا ثم تبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال في بقية الابيات .

وصفوة القول ان الحكمة المتبذلة ايسر ما يتعاطاه النظامون
لأنها صوغ متاع مشاع على حين انهم لا يمسون الحكمة العالية
مساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لأنهم لا يملكون جوهرها
ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته
وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض اقوالهم فخالوها من
قبيل الحكمة العالية لما يبههم من رنين . صياغتها وبريق طلاؤها
فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين ان ارقى ما يرتقون
اليه ان يأتوا بكلمة مقبولة في شئون المعيشة وفرق بعيد وبون
شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فاما الاولى فنبت
المران والمكابدة تقرأ آفا من امثالها في كتب اللياقة ونصائح « اباك
وحذار عليك » واما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمره
التفوق في شمائلها المقدسة وضماثرها السرمدية . كتابها صفحات
الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والاديان
وتنبثق روح الرشد والبيان . الاولى لون من ألوان البيئة المكتسبة
والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لن لا شك في غلبة الصناعة عليه
كالحريرى على ما اذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير ان الشبائك مختلفات
ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن انه سقط على كنز وطار
به كانه لا يصدق انه له او كانه يخشى ان ينزعه لفرحته به وهو

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان تولت مضوا فى اثرها قدما

ثم كرر ايضا فى قوله

وليس بعاصر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك على الاخلاق كان بناؤه من نحت اولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد اخرى وكل هذا الفرع بمعنى
بعد من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك
ما يستحق ان تصفى اليه من يخبرك بان الاخلاق الصالحة ملاك
صلاح الاجتماع وقوام الامم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون
عكسه ظاهر البطلان ويترد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر
البديهييات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية او حقائق
التمرينات الاولى .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس
فى بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشى ولها ذنب
لا تغضب يوما ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى أن يقول

النساقة لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وكثيرا في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها انها سخيقة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستأثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لأن البيت في الحقيقة لا مدلول له . فلو أنك حذفك كلمة الأخلاق وجعلت مكانها أصفارا لما نقص من معناه شيء . لأن هذه الكلمة لا تؤدي معنى محدودا في الكهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها تقيض ذلك من الطباع كالغناد والمراعاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحيانا من كلام الأفرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطباع البارزة والحيوية المثينة فأى المعنيين يقصد شوقي ؟؟ ان من الأمم ذوات الحيوية الغالبة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العاجل أو البوار ١٥ والتاريخ غاص بسير هذه الأمم . وان منها لما تحمد سجايه ثم لا تلفيه من القوة على نضيب وافر فليقل لنا شوقي ما غناه بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل .

ولقد أضحكنا مرة أحد الثائرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وان في ذبوع بيت شوقي لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى ١٥

لا تقل أصلى وفصلى أبدا إنما أصل الفتى ما قد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا !! اننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئا للإنسانية فان الشمس لا تطلع الا على الحكماء من ابنائها ١٥

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الأستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم
بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسيني
والضريح الزينبي ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد
فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما أن دفنوا
بالأمس الأ نيرة .

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقي
رثاء للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهي منشور قوله :

حلفت بالمسطرة والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء في الـ حظائر المنصورة
مراقد السلالة الطـيبة المطهرة
ما انزلوا الى الثرى بالأمس الأ نيرة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج الى قسم لأقسمت له بحسب
قبلة ومقام ، وبكل نبي وامام ، أنه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء
أن كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا
شوقي في مراثيه أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة
ينمط يلتبس عليك فيه الجدل بالزح ، ويقترن المبتدع بالمدح -
أفرايت أحدا قط يقسم لك على صدقه في تعداد منافب مرثيه
كانه يخشى التكذيب أو يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة

غير شوقى ؟؟ واذا اطرده هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن
ونتلقاه منه على انه مذهب جديد فى بابہ وتخذ له اسما فى اصول
البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا او اسما آخر
مقبولا لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من
مراثيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمد على المكروه
سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده
فى قصائده جميعا وفى أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم
انها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها اصول يرعاها وأسوم
يعيها ولا ينساها . والا فلو كان حذرہ من التكذيب واتقاؤه تهمة
المدحاجة فلتة سبقت بها قريحته فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه
الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرد

وكل دمع كذب ولوعة مزورة

الا ان الامر بين لمن ينصفون ... فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم
فاشعرنا الربيب واتهم نفسه فى ثنائيه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب
واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبدر منه جهلا
بغنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق اليه ، ونرجوان لا يبارى
فيه ... فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا
الرثاء القديم فهذا غيب لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير اسمائها .
فلا بد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر لطريف وعليه هو تحرير
قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجہ .

عجيب والله امر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ أشبه بالتمعمص
ولا توقرا أقرب الى المجانة من هذائه فى رثائه . وما التبس الهزل
بالاجلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان اغناه عن الحلف
ومبرات الاميرة أشهر من ان يرتاب فيها أو يتنازع عليها ؟؟ وهبها

لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر إذا لم يصدقها الناس بالإيمان أو البراهين في قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا وساله : ما باله يفترض أن الناس تبكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضروري هذا ليقول بعده أن الدموع الكاذبة لا تفنى عنها وأنه .

لا ينفع الميت سوى سالحة مدخرة

أقول ذلك لأن الدموع إذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته عن السالحة المدخرة ؟؟ فإذا كان التباكى كالبكاء في هذا المعنى فلم هذا السخف الذي يفيض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟؟

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا أننا نريد أن يلمس ضعف تمييز شوقي عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا أننا سمعنا يبتين منها يرددان في معرض الاستحسان فأحببنا أن نمسح الرغو عن محضهما لمن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الأول وهو .

فاطم من يولد يمت الهد جسر المقبرة .

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين إليه أبا المتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيا إلى غيرها فانما الدنيا لهم مصير

وفصله المعرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول وثان، وفقد المرء أن يعبر الجسر

وهو أوضح وأوجز في قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة النية واعلم انما الشيب للنية جسر

فالذي صنعه شوقي هو أنه سرقه وشوهه كعادته لأنه جعل المرء يخرج من المهد إلى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم أطفالا !!

والصحيح ان المهد اول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية
بقيته .

والبيت الثانى او هو بيت القصيد فى رايتهم قوله :

يلفظها سكرة كانت بغيره سكرة

يعنى الروح . وقد كان يخطر لنا ان يمدح كل بيت فى القصيدة
خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الاذواق وانتكاسها .
فقد دل به شوقى على سقم تعبيره واراد ان يقول ان المرء يحب
الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لانه كنى عن
صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان
اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو انه قال :

يلفظها سكرة كانت بغيره حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا
ادركه الموت حلا مذاقها لديه وكره ان يلفظها كأنها « السكرة » !!
ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشى على يديه او ينام على بطنه فيرى
العالم معكوسا ...

ومن ترهات شوقى التى يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه
القصيدة :

وكل نفس فى غد ميتة فمشررة

فالنفس لا تموت فى غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى
امس واول من امس وقبل ذلك بالآلاف السنين وهى تموت اليوم
بل الساعة . ولكن الرجل اشتبهى ان يقول : ان كل نفس تموت
مشررة غدا - فخانه الاداء وخذلته العبارة وهى لو استقامت له لما
جاء بطائل .

واما سائر ابيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها
وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات نقل شعر شوقى فلا
نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصاء ، والشعر اذا تساوى
فيه اللقد والاغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ما هذا بأعمد؟؟

مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحيانا وكثيرا ما يخطئون السداد بتريئهم وطول اناتهم . وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أوجله اذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواد وينق الحافه عند من ليس يكرئهم أن يخذعوا به . بيد أن الاعتساف اذا كان رائده الخرق في الرأي وشيك أن يقع صاحبه في الزلل احدى المرافضييع عليه ما لو علم أنه مضيعه لفدأم بكل ما في دماغه من هوس وما في لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعي فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه وأن قدميه أسلس مقادا من رأسه لعنه يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما تقدناه فيه نشيد شوقي وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه الرافعي لانه لا لبالي اذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقي جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والبخيرة فلم يدع في طبعة نشيده الثانية وجهها من أوجه النقد التي آتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته ان القذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين .

ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبيه
الى صنيعة ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا
ونحن يسوءنا ان يسرق الناس من غصيرنا ولا نرضى اجترأهم على
غير سياجنا ؟ ؟

وليته اعتدل او ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه اذن لنفسه
بغاية الافراط ولا يريد ان يأذن لنا بسوى الغاية من التفریط .
فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامى كما تكنى نفسك أو يا أبا
عمرو كما تقول للجنة الأغاني في خطابك فان صاحب المساكين حري
ان لا يفتصب بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار .

قلنا في نقد نشيد شوقى ان النشيد القومى يجب « ان لا يكون
وعظايل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب » .
فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشيده فحور منه ما استطاع
بضمير المتكلم فقال :

الى الصلا في كل جيل وزمن فلن يموت مجلدنا كلا ولن
وقد كان هذا البيت في الطبعة الاولى :

الى الصلا في كل عصر وزمن فلن يموت مجد مصر لا ولن
ولما ان طوى هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض عن يديه
ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقى
لقوله :

على الأخلاق خطو الملك وابنوا الخ .. الخ .

ويسأله : « وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه
أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٩ » كما سألنا من قبل : « فمن الذى
يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة لا » وكما أخذنا عليه
« أنه لهتوطا مطية الفلسفة والمواعظ » .

وأنكرنا من نشيد شوقى أنه « قد حسب اننا سنظل طوال
الدهر كدأبنا في يومنا هذا فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به في جميع

العصور ان يتهيا مكاننا وان لا نبرح نشرع في التمهيد وناخذ في الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشبيد الأركان » .

فجاء أبو عمر البيهقي فقال : « واذا قيل اليوم لبنى مصر هيا مهدوا للملك ومكانكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد ألف سنة وما شاء الله والى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله في تمهيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقي عن الشمس : « ألم تك تاج أو لكم مليا ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج القراصة وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيهقي ايضا « أن زعم شوقي أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فله ما أعلم البيهقاوات بالتاريخ اذا لقنته !!

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وأنه صير « سئلت » سيلت و « تهيا » تهيا و « شينا » شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل في همزة سيلت لم يفهمه الا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الاساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الاساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

ورويانا أن بعض الملحنيين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول مهدم عزاء و « فخر » الخ الخ .

لأن التنوين لابد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت . قالوا « واذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة (فخر) ومد

بها صومه ورجه فأي رائحة تفوح منها ؟ » ثم قلنا : « ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعلم المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والمحدثين أنهم : « تنادوا بقوله فخرا وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا انها مما لا يدوقه احد الشعراء من طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه .

اتراء كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذي صحب الزمانا ومن حدثاته اخذ الامانا
ونحن بنو السنا العالي نمانا اوائل علموا الامم الرقيا

لان الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس » .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : « كيف غفل شوقي عن ان يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣ .

فاسأله بالله ثم اسأله كيف غفل أيها الرامد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة أنه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابشوا

فليس وراءها للعسر ركن

ليس لكم بوادي النيل عدن

... الخ الخ

قال : « ان البيت الثاني مثبتر وسال : ما العلاقة بين النصيح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن والكثير » .

تترك هو القائل والراوى وژوى وجهه عنهما وصاح وحده ؟
« كلام مقطوع عما قبله » . وسال من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم
بوادى النيل عدن وكوترها فماذا ؟ » ص ٨٠ .

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفينى الصليب على الهلال
ووافقناه نقلنا : « وهو انتقاد شديد فاننا ان سمينا الوطن ملة
ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ » .

فوضع اصابعه فى اذنيه - او لم يضعهما - واصر وولى واستكبر
استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا : « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له فان
اقوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل
هذه الاديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها ان احدا
تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة
انها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لفظة ذهنه انه ضمنها فى
صفحة ٦٧ كتابا للاستاذ منصور افندى عوض مؤرخا فى ١١
ديسمبر ...

فهذا الخلق البقيض ونظائره من جرموته هى التى تملأ
نفوسنا تقراز وعزوا من ادب الجيل الماضى وادبائه ، ومن صناعة
من ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لاحقر الصناعات من حرم بره
ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده - ارجعهم منها سهما

اجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وارفعهم فيها اسما
اطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا تقيضان
من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها
ولا حقوق لدويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ،
وما على المحترف بها بأس من السماجة والاقتراء ؛ وانما البأس
كل البأس عليه من المروعة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة
لجنة الاغاني فقيدناها لهم وأيينا لانفسنا أن ندخلها في كلامنا مع
أنها أهون وجوه النقد التي أخذناها على النشيد ومع أننا تحدثنا
بها لأصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل أن
نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحي أن يسم نفسه
على غلاف رسالته «بنابته كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعمد الى
نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتنامه فينتحله
جملة ولا يقلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى بسميتنا مشاهير المذهب
العتيق بالاصنام (١) ثم لا يرى أن عليه بعد ذلك أن يوحى بفرد كلمة الية
ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا
في مصر كان هو يكتب رسالته في اقاصي الصين أو اطراف السويد
ولا ندري وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون
منها والهزيمة ؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره
وظن أنه فاتنا أبلغ في الغند والسخف فنمى على تشيد شوقى خلوه

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد أكبرهم أن يقرر أصنام الطبقة التي هم دونها
ليكونوا بذلك أصناما للطبقة التي هي دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم
قد تغفل باطله ونزعت شياطينه وانفرت رذائله فإذا ذهبت تصلح منه التوى
ملكك »

من لفظتي الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة
تتغنى بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها
بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

إيه يا خفافيش الأدب . أفثيتم نفوسنا أغنى الله نفوسكم
الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم . السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا
السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فاكثروا من مساوئكم
فانكم بهذه المساوئء تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها
حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضت اثنين :
أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يابون الا ان يعدوا شكرى من
دعاة الجديد والا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء
سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نبيط الأذى عن المذهب
الجديد ونفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولا نحن
نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهل البصر والاتزان
وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم
لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على اكتافهم رءوسا
وكانما حملوا معدة أخرى لا عقلا يفكر وذمنا ينظر ويتدبر . وهم
يطالبوننا أن لا نشيم الخير من أحد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق
مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محذور
وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه !! فيا ويحنا لقد اسخطنا والله
هذه المعدات الضافية وهجنا ثعالها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى
« وضع أهم أحجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته »
كما يقولون . ولكن لا ضمير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب
فانا لا ننكر أن شكرى « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف ليكمه ماذا يقول . ويتطوع
المشفوق عليه للدفاع عنه فجاء دفاعهم اقتل له من نقدنا .
وينقمون منا انا جعلناه صنم الالاعيب وهم يسخرون منه
ويتضحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى
نخلص له النصيح ونمحضه الراى والسداد ونشجعه ونغبط بما
نراه من تعلمله من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة
فى التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا ان نظل العمر طامعين
فى غير مطمع ؟ ثم اعملناه على شىء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا
عليه فى الزجر فلم يئن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا
راكبا راسه حتى احفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى اول عهده بقرض الشعر لا نفعل
الى جانب التشجيع ان ننبه الى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء
الثانى من ديوانه « انه يطا مفاخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد
كلامه بتهديب أو تنقيح ولا يبالى اى ثوب البس معانيه » وعللنا
يومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتماذى الشعراء فى المنهج
القديم ولجأجتهم فى احتذاء الال العتيق » اى انه نتيجة رد فعل
فهو تطرح وتطبيق للعقل يقابلهما من الجهة الاخرى غطيظ المقلدين
لى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى احد ان راى اليوم
لا يتفق مع راى الامس ان صح ان هناك راين ؟ كلا لقد ادينا
الواجب له وللادب قديما ولكننا اليوم نؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات ان رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها
« انك تتهم شكرى بالجنون وانت مثله والجنون فى شعرك كثير »
وما رمينا احدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه ابدا الى هذا
الخطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالة . على ان كونى مجنونا
لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شىء جل او دق وما اتهمنا شكرى
ولا تقولنا عليه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى
كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ » :

« انى أسىء الظن بكل شىء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رأيت فى الضياء ظلاما ورأيت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى أذنه فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليسرى ومن العجيب ان هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (!!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط فى الظلام وتودى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من أجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلقت أعماقه ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائج . ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء المكر والأمانى) اه .

فهل رأيك أيها القارئ أننا فيما كتبناه عن شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ فى شىء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرر من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخيها للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وأوردنا شاهدا على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من «الاعترافات» شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المحاز فى شىء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا القرض والتأويل فقد سد بابا باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ .

« ويسمع المحب انقاما وألحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى اشكالا هندسية بديمة لا تسمع عنها فى كتب

الهندسة ويرى أزهارا خيالية لا يعرفها الباحثون في علم النبات «
فهو يسمع ويرى ما يعلم أن لا وجود له وفي هذا تأييد لقوله في
وصف جنونه « ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون
من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائج » .

وشكرى قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال في ص ٢١ من
الاعترافات :

« لقد كنت في صفري كثر الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس
العجائز من النساء أسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه
الفصص تملأ كل ناحية من نواحي عقلي (وحتى صارت) عالما كبيرا
ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولي تحل حيث
أكون . واذكر أني رأيت مرة عفريتة على سطح منزلنا وكان أسود
الجسم شخصه مثل شخص الإنسان ولكن جسمه يعلوه الشعر
الكثيف » .

وليس ذلك في صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده
كما كان في حدائته .

انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفي بعض الاحيان أخاف خوفا شديدا أن يظهر لى ابليس .
فاتلفت كي أثق أنه لم يظهر بعد وفي بعض الاحيان أعتقد وجود
العفاريت والجن كما كنت أعتقد في أيام صفري لقد سمعت البارحة
القطط تعوى وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الأرواح الحائرة
المعذبة (التي تتخذ الليل جلبابا ثم تفرغ في ذلك العواء ما تقاسيه
من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام
لم أشك في أنها عفاريت من الجن وأصابتي رعدة شديدة .

وتأمل تدقيقه في وصف هذه الأرواح الحائرة التي يذكرها وكيف أنه لا يجد تمثيلاً لمواء الفطط - لا عوائها - إلا بمواء المغاريت وكذلك كل صوت في سمعه قال في ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت في ولدها » وهو بعد يلتذ المربعات كمنظر النار تأكل الدور قال في ص ٣٤ « أذكر أني رايت مرة حريقاً هائلاً في جنح من الليل فبهيج في قلبي عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج أعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت أرى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتهدم وتنهال وتتصاعد السنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجها نور يزيدنا شحوبا وكنت أحس لفح تلك النار في خيالى وذهنى .. هذه هي المناظر التي (التذها) ومن الغريب أنى يخيل لى أن هذه المناظر وما تبعثه من الاحساس تعين المرء على أن يفهم الحياة ومعرفة مبرها » .

ثم تصور شكرى واقعاً له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رايت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكرانى بسوء .. أو أحدا ينظر الى الا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وانى لأسى غلى الآن بمن سيقراً هذا الكتاب وما رايت أحدا ينظر فى ثيابى الا حسبته رأى فيها شيئاً خفى عنى وما رايت أحدا ينظر فى وجهى الا حسبته رأى فيه شيئاً قدراً وما رايت أحدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلى بغضا أو حقدا وما رايت أحدا باسمى الا حسبته يسخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكاً لم أعرف سببه الا خجلت بخجلاً شديداً وحسبتنى غرضاً لذلك الضحك (ومن أجل ذلك صيرت أعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس الا من عرفت

سبب ابتسامه وأحيانا أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعنى ذلك من
إساءة الظن به)

ولست خواطر الجنون وسوء الظن والمقاريات كل ما يملأ
ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفرع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رأيت فى
الحلم البلوحة أنى اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما
أدفع به التهمة فصرت أصبح أمام القاضى وأقول أنا برىء والقاضى
يهز رأسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم
رأيت بعد ذلك أنى أساق للسجن والاعدام أنه لحلم يفزع . . أنى
لاذكر أنى اتهمت (زورا وبهتانا) فى أيام صغرى بسرقة علبه من
الحلوى ولا أزال أذكر ما نالنى من الفزع أن تكون الحياة كلها تهم
(كذا) باطلة . . على أنه من (جنون) اليأس والفرع والجبن توقع
ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغي أن نفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى أن هذه
التهم مرورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منه أن
يصدق القارىء ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : « بحسب كثير ممن لم يتعود التفكير أن الناس
منقسمون بفطرتهم الى قسمين فهم إما مجرمون وإما أبرياء وهذا نظر
فاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام . . أى الناس لم تخطو
بباله خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك فى نفسه من حشرات
الشر . . لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع
المراء الى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء
القاتلة الحرارة والمراء فيها كالصحراء الظلمات يليح له سراب الشر
(بضائئه) فيريد أن يروى ظمأه وينقع غلته أنا اليوم برىء ولكن
ما بدرينى ربما كنت فى غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التى فى

نفسى . . . وكنيت أشفق على المجرمين واملا لهم قلبى رحمة فانه لا يحزننى فى الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رايت فى الحلم مرة انى اتيت جريمة القتل ثم وقفت امام جثة المقتول وقد احسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنيت احس جريه كانه دبيب الحشرات وقد جمد الدم فى عروقى واسودت الدنيا فى عينى وكلما اردت ان اتنفس احسست شيئا يسد مجرى النفس وكنيت احس صوتا كانه صوت اعصابى تتقطع فيحكى صوت تقطع اوتار العود وكنيت يخيل لى كان بدا من جليد قد وضعت على ظهري هذه الاحلام التى تمكن الاديب ان يعدم شخصه فى اشخاص غيره وان يلج الى ارواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم التبعس .

وقال فى ص ٦٢ : « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الاحب الاحياء انفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة ان انتحر فرارا من سلطان القضاء فاخذت سكينا وادنيته من صدرى ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي ان اضرب نفسى الضربة القاضية فلم تمن على نفسى فقلت الليلة الآتية افعل ذلك ولما اتت تلك الليلة ارجأت الانتحار الى ليلة اخرى حتى افكر فى طرق الانتحار واختار منها واحدة . »

وقد فكر فى الانتحار مرة اخرى لسبب هذا خبره قال فى ص ٩٦ :

« انى لا ازال اذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقيقى لم يكن يدري مبلغ اساءته فرفعت يدي لالطمه ولكن الجبن واخاه الحزم همسا فى اذنى قائلين انك اذا لطمته لطمتك مرة ثانية وهو اقوى منك فلا تصببه الا ببعض ما يصيبك فخير لك ان تتحمل اللطمة الاولى وان تنجو سليما فوقعت يدي الى جانبى واحسست ان روحى قد سلبت اجل شئ فيها فنظرت الى ما بين قدمي لارى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم احسست كان عظامى قد احترقت

ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرثنى حيرة وشككت فى الحياة
فجعلت اعدو من الفيظ وقد اسودت الدنيا فى عينى وجعلت أنظر
الى المارين وهم ينظرون الى فارميههم بلحاظ المقت والكره لآنى كنت
احسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدث لى ويفهمون سر روى
الذى أهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت أن
أرمى نفسى فيه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التى تفر من اللطام
الى الحمام ثم ذهبت الى البيت .. وخطر لى (أن أتأبط سكيناً
أو مسدساً وأن أقتحم من ذلك الشقى فأقتله) ولكن الحزم والجبن
وهما سمرأى ونصيحاى إلا حالى بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض
أسنانى من الفيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات
(الجنون) اهـ

على أنه تشجع مرة بعد هذه وأراد أن يظهر أنفته وعزة نفسه
فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكها بعقب هذه المرات .
قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدل بيننا وخفت أن يبدأ اللطام بدأته به فان
المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت أريد أن يخر
مغشياً عليه مثلاً ولكنى خفت أن أفقأ عينه أو أن أصيب أحد أعضائه
بتلف دائم أو أن تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة
وبالعقاب الشديد .. كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما
سددت يدى لالطمة ومن أجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديداً
فمد الى يده باللطام ولكن يخيل لى أنه لم يخش ما خشيت من
العقاب وإنما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بأنفهمشم
وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح » .

وقلنا من شكرى انه أبكم فكاننا اخترعنا شيئاً وحسب البعض
ممن يظنوننا نلقى القول على عواهنه ولا نبألى أين وقع من الحقيقة
إننا نستطيع بلساننا عليه مبالغة فى إيجاعه وتنقصه والزراية عليه

ولهم العذر اذ ما أدراهم أنه هو القائل في ص ٣٩ من الاعترافات :
 « انى فى خلوتى بنفسى اعد الكلام البليغ والحجج الراجعة
 والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون
 كل كلمة من كلمتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء
 وحادثتهم لم أجد فى كلامى هذه الآيات البينات . ثم اذا خلوت
 بنفسى بعد ذلك أقول كان ينبغى أن أقول لهم كذا كذا فينطلق
 لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن أى مزية فى أن يكون المرء
 (عيباً) فى المجالس فصيحاً فى الخلوات ؟ وهذا سبب من أسباب
 انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون
 حياتى هادئة مطمئة » .

وليس الأمر عنده من قبيل صمت المفكر أو المحزون أو
 قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص . قال فى صفحة ٤٧
 من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت أنظر الى جراحة الرأبى
 من الفلمان (وحسن لهجتهم) وأعجب بها وأتمنى أن أكون مثلهم .
 أذكر أن أبى زار بى صديقاً له من الفرنسيين وكنت صغير السن
 وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الغلام وصافحنا وحيانا
 (بفصاحة وطلاقة ورشاقة) أعجب بها المحاضرون وصاروا ينظرون
 الى ويضحكون » .

ولا تظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنون » فى شعره
 بعد اقراره به وتقريره أنه جرع كأسه المرة وأنه وصل الى أعماقه
 وأنه يحس بجنونه ويعرف أسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين
 البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون أنهم مجانين

وفي اناس كا ابون حتى على انفسهم ولكننا عاشرنا شكرى
اعواما طويلة رحالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ في شيء مما وصف به
نفسه بل لعله آثر السكوت عن اشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه
وملابسيه . ولا يمكن ان يقال في الرد علينا وفي تبرئة شكرى مما
قرف به نفسه ان « الاعترافات » صاحبها رجل آجر اسمه م . ن
وان شكرى ليس الا ناشرا لها فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة
من المقالات لا يربطها شيء الا ضمح المتكلم وقد نشر شكرى اكثرها في
« الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على انها له ثم عاد فجمعها
في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات ابيات شعر كثيرة
واردة في اثنتائها وفي الهامش انها من شعر المؤلف وصاحب الابيات
هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التى هى منها وقد يعين الجزء
من ديوانه الذى وردت فيه .

ومما هو خليق ان يبعث القارئ على الركون الى هذه
الاعترافات وتصديقها. انه يجد مصداقها في شعره فكما انه قال في
الاعترافات في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره
« فقد اغرم الانسان بالشر والأذى » وقال :

كل نفس فيها الخير والشر

دواع طويلة الافغساء

وقال معترفا انا اليوم برىء ولكنى ربما كنت في غد مجرما ومن
شعره

وبما شب بين جنبيك للشر

ضرام ما ان له من فناء

انت في اليوم واسع الجاه غص ال

خير لسن الرخاء وطب الرجاء

خالص الكف من دماء قتيل

ايضى الطبع لم يشب برباء

ربما كنت في غد اشعث الطبع
 ح لئيم الخصمال جم الشقاء
 خاضب الكف من دماء عدو -
 طائر الضغن ثائر الشحاء
 وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل واورنا بدا من
 اعترافاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة
 الفادرة » وهي قصة امرأة ارادت ان تسمه نفسها هو :
 وهي قد افرغت لى السم في كوبي
 وقامت تمر قمر بعييد
 ثم غافلتها وافرغت كوبي
 فسوق ماء بكوبها منزور
 ثم نلنا من الطعام بلافا
 وشربنا برط من التصريد
 ثم جاء اليوم الجديد فنامت
 زوجى الرود نومة القبور
 فصل السم فعله في حشاها
 ودهاما من الردى بقيود
 ومنها قصيدة عنوانها « م اسبرطية قتلت ابنها » وهو فيها
 يبرر هذه الجناية لانه فر من الحرب قال وقد نسي انه هو ايضا
 جان حتى في موطن « اللطام »
 ايها الخائن الجبان خشيت الـ
 موت والموت حادث مقسور
 ان اما تعزى لها قتلت في
 قتلك العار لم يصبها معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبله الزوجة الخائنة »
 قد قبلتني قبله مرة
 كأنها من حمة المقرب
 تنهش جاسها لم يكن نهزة
 لشاحذ الأنياب والمخبط
 لولا وميض الزأى يقتلاني
 يعيلني من سفه الغضب (١)
 جللتها بالسيف امحو به الـ
 ثوب بذهب رائع معجب
 وتأمل في هذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف أنه
 يصف الجريمة بأنها رائعة معجبة . ومنها قصيدة العقاب بالقتل
 وفيها يعذر المجرم
 أطيلوا حياة الجارمين فانها
 حياة اذا سسد المطامع عاقر
 لقد اخلفتهم بلغة العيش برها
 زمانا وحابات الحياة غوادن
 فبئس حياة المرء والفقر عاكف
 عليه واسباب الحياة جرائر
 هنا لك انى للفقير لمساذل
 وانى له مما يعانيه عاذر
 كان كل من يجرم يكون باعته الفقر والخصاصة : وله عدا ذلك
 أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه
 فلو كنت بين الناس ربا معز
 ونادوك انى فانك النفس جارم

لألفيت غفرانا لديك ورحمة
فمما يفقر الزلات الا الاعظم
وقوله :

رحت اسعى كمصحر بان عنه ال
صحب فردا ذا وحشة واطراح
او كذى الجرم حين طال به السجن
يفضل الطريق عند السراح
وقوله :

كان هموم المرء ذنب مراوغ
فيا يؤس مقتول ويا يؤس من نجا
وفى واعترافاته انه يحلم بانه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في
شعره

يرى الناس ان النوم ام رحيمة
ولكن نوم الجارمين عقاب
يسل على العظم اسياف نقمة
فاحلام نومي كالبحيم عذاب
كم هد من عزم صليب عذابها
وشيب وراد الذنوب فشابوا
ومنها :

وغيرني عما عهدت جرأثرى
فليس الى الحال القديم اياي
فلا تحسبن الشر يمحي بتوبة
وان غفر الجرم العظيم متاب
يواقع كل الناس بالفكر شرهم
وقد عابني انى جرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشرذا الخير نفسه

وذلك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه في اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء
وكذلك فعل في هذه القصيدة

ظلمنا فخلنا الشر في العيش منهلا

لكن ورد الجارمين سرايا

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم يرفيه مائما

وان بقلبي من جفائك (جنة)

فان رام يوما قتلكم ما تائما

فاسقى جنوني من دمائك جرعة

وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تقصيه وما بقي من شك في
أن الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هي صفاته
ومبولة ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في الفطر
السليمة والطباع القوية كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالفنا
الهم لا وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ؟ كيف والطبع
أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظران معكوس يريها
الاشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

((ابراهيم عبد القادر المازني))

فهرس

الجزء الأول

الصفحة

٣	مقدمة
٥	شوقى فى الميزان (توطئة)
١٢	رثاء فريد
٢٧	رثاء عثمان غالب
٣٦	استقبال أعضاء الوفد
٤٥	النشيد
٥٤	النشيد القومى
٥٧	صنم الالاعيب (١)

الجزء الثانى

٧٧	أدب الضعف
٨٠	ترجمة المنفلوطى
٨٤	الحلاوة والنعومة والأنوثة
٩٦	العبرات « قصة اليتيم »
١٠٣	أسلوب المنفلوطى
١١٥	شوقى فى الميزان
١٢٨	رثاء مصطفى كامل
١٦٦	رثاء الاميرة فاطمة
١٧٠	ما هذا يا ابا عمرو ؟
١٧٧	صنم الالاعيب (٢)

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٦/١٤١٣٢

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مَصَابِيحُ مُؤَسَّسَةِ دَارِ الشَّعْبِ - لِلصِّحَاحَةِ وَالطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ
١٤ شَاطِئِ قُصْرِ الْعَرَمِ - الْقَاهِرَةِ ١٠١ - ٣٥٥١٨١ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠